حالة مستعصية

بقلم
سعيد سالم

•

دار الهلال

الغلاف للفنانة :
سميحة حسنين

- ١ -

منذ بضعة أشهر لم أجد بنفسي رغبة في أن أريد شيئا . كأن طاقتي للفعل قد بدأت تتحول بالتدريج إلى مجرد طاقة كامنة تحت تأثير قوة خفية قادمة من المجهول . يحدث هذا في ظل هدوء نفسي غريب . لا يصحبه قلق ولا يؤرقه خوف من المستقبل أو ندم على الماضي . ولقد وجدت أنه من العبث أن أسميه زهدا ، فأنا أبعد ما أكون عن الزهاد ، لأني أقبل دائما على مسرات الحياة بما يزيد عن حد الاعتدال ولكن في غير نهم ، وإنما ببطء متمرس ، أستحلب المتعة حتى رحيقها الأخير . وفي الوقت ذاته أجدني لا أحزن كثيرا لو بددتها الأقدار من يدي فجأة ، فالأيام لابد قادمة تحمل الجديد أو راحلة تحمل اليقين .

في هدوء رحت أتأمل هذا التحول . أهو شيء من قبيل المصالحة مع الحياة والناس والزمن والقبول بما هو متاح دون شعور بالأسى على مالم يتحقق من أماني ورغبات . أم أنه نضج مفتعل كشفت عنه خيبتي التي صدمت بها فجأة بعد هذا العمر الطويل ؟

ستة عشر ألفا وأربعمائة وخمسة وعشرون يوما تجمعت في لحظة ووقفت أمامي على كف عفريت مشاكس ، راودني شعور بأنها قد جاءت تحاكمني فأنا لم أستدعها بإرادتي . رنين مفاجيء لجرس الهاتف هو الذي استحضرها من العدم . لم أشعر بخصومة قائمة بيني وبينها فلم يكن هناك ما يبرر ذلك بوضوح سافر . لكن يبدو أن حبي لها لم يكن خالصا . رغم ذلك فقد أصبحت المواجهة بيننا أمرا محتوما .

كنت أصلى العصر . رفعت تغريد السماعة . أسرعت فى صلاة الركعة الرابعة دون وعى منى . تبدد الانفصال الهلامى بين الدنيا والآخرة كما سبق له أن تبدد فى صلوات عديدة من قبل . كنت أنتظر مكالمة لا أهمية لها - كمعظم مافى الأيام من أشياء لا أهمية لها - أما أكثر الأشياء أهمية فى الحياة فأنا لم أعرف ماهى حتى الآن .. كان وجه تغريد ممتقعا وقد اعتراه ذهول مفزع . سمعتها تسأل المتحدث فى هلع :

- من أنت ؟ .. من أنت ؟ ..

بالأمس عدت إلى منزلى مصطحبا أسرتى ويقينى بمصالحتى مع الحياة. أقام لى جمع من الأصدقاء والمعارف والزملاء حفلا جميلا بمناسبة حصولى على شئ من تلك الأشياء التى يدفعنا ضوء شمس كل صباح للسعى إلى الحصول عليها نحن خلق الله من المهرولين دوما فى الاتجاهات الأصلية الأربعة . تحدثوا فى الحفل عنى بمحبة عمقت فى نفسى الاحساس بالرضا عن أيامى ورضاها عنى ، وتنفست الهواء بصدر لا نهاية لاتساعه ، وأصابتنى نفحة الحب بالارتياح الجميل . سعدى فى أحبائى وليس فى مالى أو منصبى أو موقعى الاجتماعى . لا أرى معنى لحياة تخلو من أصدقاء حقيقيين أستطيع أمامهم أن أتخلى عن احتراسى فى طمأنينة تامة . أشعر أننى طائر محلق يتغنى بالنشوة فوق واحة من السكينة الخضراء .. حتى لو لم أنطق أمامهم بكلمة واحدة . فالجلوس عندى مع الصديق والبوح له بسرى واستماعه إلىّ باهتمام هى أمور تعظم من شعورى بالاكتفاء والاستغناء وراحة البال . أحمدك يا إلهى وأشكرك لأنك لا تعاملنى بالمثل .

ناولتنى زوجتى السماعة وقد غطت بيدها بوق التحدث وهمست لى بنبرات مرتعشة .

- مجهول يسبك بوقاحة وانحطاط .
- هل ميزت صوته ؟
- لم أسمع هذا الصوت من قبل . ولكن يخيل إلىّ ..

– ماذا يقول ؟

– «أين زوجك ابن الـ .. الـ .. السكير الفاسق» ؟ ..

في الفراغ الحائر بين السماعة وموطىء القدم تأرجحت أفكارى عن الطمأنينة والرزق والمصالحة وأغانى النشوة . استحالت الواحة الخضراء فى لمح البصر إلى أرض جرداء تعيث فيها الوحوش المتصارعة ، فوضعت السماعة على أذنى وقلبى يخفق متوجسا وركبتاى ترتعشان بالتساؤل عمن يكون ذلك المجهول ولماذا جاء يسلبنى الحلم والفكرة ، وأى أقدار تلك التى اختارت له هذا التوقيت . وسؤال فرض نفسه على اللحظة هل أحمل حقا هذه الصفات البشعة أم أننى برىء منها ؟ .

بالضرورة أن أكون أول العارفين ولكنى – وما أغرب ذلك – وجدت نفسى أشك فى تلك المعرفة وانتظر حتى أستوضح منه الحقيقة . الصوت يأتى مكتوما منضغطا بركام من الغضب الأسود وقد تغيرت معالمه بقصد التضليل والمراوغة . الصوت رغم هذا واثق . بطىء السريان . قوى النبرة . يتجاوز صاحبه سن الشباب بحيث تنتفى براءة المعاكسة ، ويبقى أن هذا الكيل المتدفق من السباب المتدنى أمر مقصود ينطوى على حرقة وتوعد .

ممغنطا أعدت السماعة إلى تغريد وقد أعجزنى دوار غامض عن الاتزان وشل عقلى عن التفكير . تلقفتها منى بلهفة إلى أذنها وكأنها بشوق إلى سماع المزيد . تبددت قدرتى على التفكير البرقى الذى ألفته فى نفسى عند الأزمات . هل حان يوم الشك المرتقب . هل تنبذ جوانحها فى لحظة عابرة قصة حبنا التى تبادل الأقران روايتها فى غبطة وإعجاب وغيرة وانبهار ؟ . كنا حديث المحبين والعزال فهل تصورت أننى أخونها ، وأن هذا الصوت الوحشى الجريح المهدد بالثأر المتوعد بالانتقام ينزف مرارة اعتدائى على شرفه .. وأن من حقها أن تقف الآن على تفاصيل الفضيحة . أم أنها تود لو ضحت بعمرها كى تكشف معى النقاب عن صاحب هذا الصوت حتى أتمكن من انزال أفدح العقاب به ، وهى تعلم يقينا أننى ما تنازلت يوما عن حقى

لمخلوق إلا من باب الشفقة ؟؟

من بؤرة الدوامة التى جذبتنى بعنف إلى مجالها القاتل تناثرت أوراقى بين يدى حاملة ذلك الرقم الطويل العريض العميق بعظمته وتفاهته وتعقله وجنونه . وكيف لا أستطيع أن أتذكر ولو آية قرآنية واحدة أصرف بها نفسى عنى .. أهلا يا ربيب الأرامل والمطلقات ..

وقفت تغريد أمامى على مسافة تبعد عن موقعى بمقدار تسعين عاما ، وقد أتى كل منا إلى الحياة فى نفس السنة والشهر واليوم . خيل إلى رغم بعد المسافة أنها تقول للمتحدث المجهول .

– هو يصلى .

تعيش وهما اسمه المصالحة فتلقى بنفسك إلى التهلكة . لم تكد تهنأ برفاهية الامتناع عن الفعل والإرادة .

تجمع بين السذاجة والغباء ظانا بنفسك غير ذلك . أوراقك لا تختلف كثيرا عن أوراق أى بنى آدم . لكن أذناك تطرب لسماع نقيق أناث الضفادع ويخاف قلبك من نسمة الخريف الشجية .. فأى كارثة تحيق بك .

حتى الآن لم يكن قد سمع صوتى . أنا الذى سمعت صوته لبرهة وجيزة قبل اعادة السماعة إلى تغريد .

ضاع من ذاكرتى نص الكلمات التى سبنى بها فى عبارات سريعة متعاقبة . كل ما تبقى منها مجرد انطباع ، ما أعجب أن تزلزل الكيان موجات صوتية هائمة فى الأثير فتبث الرعب فى النفس وتلقى فى جوفها ببذور الشك المسمومة . انطباع أشعرنى بأننى سلمت عمرى بيدى للوهم فأعطانى بدلا منه السراب . أوراقى عشتها مخدوعا . استنزفت ساعاتها ودقائقها بطريق الخطأ . يسمونك «حبيب الكل» !.. تخيلت وتوهمت وظننت وصدقت وأمنت وأيقنت .. وبعد هذا تنشق الأرض عن مخلوق يكن لك كل هذا الكم من الكراهية والازدراء . هه ؟ ..

أن يرفضنى إنسان أو يتجنبنى أو لا يحبنى أو يخاف منى أو يحقد على

فذلك أمر مفهوم . أما أن تغلى فى قلبه - ضدى - كل هذه الشحنة المتفجرة من البغضاء والعداوة ، فما أقل شأنى فى عالم المغفلين ، وتبقى ضرورة الدفاع عن بقائى بكل ما أملك من أدوات غريزية لا حيلة لى فى استثارتها لحظة الخطر ولا فى كمونها لحظة الأمان . المهم هو البقاء . أما لماذا تلك الأهمية فيسأل الفجر فى ذلك .. وقال لها الرجل الذى يكرهنى دون أن أعرف من هو :

- ها . الفاسق يصلى ؟؟

فى توجس نقلت لى عبارته ويدها تغطى بوق التحدث للمرة الثانية . تنظر إلى فى دهشة صارخة لصمتى وسلبيتى أمام هذا الموقف الغريب الذى نتعرض له معا لأول مرة . ربع قرن من الحب ألا يكفى ؟

اختطفت منها السماعة بقوة أذهلتها . أكانت تلك هى اللحظة التى ترتقبها بصبر نافد لتبدد عتمة شكوكها حتى تقف على الحقيقة ؟ . ها هو العدو يمهد لهتك أسرارى موحيا بقدرته على تقديم الأدلة والوقائع .

وهأنا اختطف من يدها السماعة فى نفس اللحظة الدقيقة . لكن لماذا أخافه وخوفى منه لا يشكل خطرا يذكر إلى خوفى على حياتى معها . حياتى الماضية والآتية ياربيب الأرامل والمطلقات والعوانس .

كيف يكون الحال لو اكتشفت فجأة أنها تعاشر إنسانا كاذبا أتقن التمثيل لربع قرن بأكمله ، كيف لو تبين أن هذا الإنسان قد طارح امرأة غيرها الغرام ووضع فمه فوق فمها ؟

وضعت السماعة على أذنى وسألته بكل ما تراكم فى حلقى من حزم وعنف وخوف وضعف وقوة ورجاء .

- من أنت ؟

التزم الصمت . فوجىء بموقفى . أفسدت عليه زهو انتصاره . تصور الساذج أن الطريق ممهدة أمامه كى يعربد فى أرضى أمنا .

- تكلم يا جبان .. من أنت ؟

بصيحتى لمع بريق غامض فى عينيها . قرأت فرحة العمر على وجهها الجميل الذى أحببته منذ صباى فلم تفارق معالمه خيالى فى لحظات المسرة والكدر . هاهو زوجها إذن . ذلك الرجل اللغز الذى أحبته قويا وضعيفا . ناجحا ومتعثرا ، ميسورا ومعسورا . ها هو يهب للذود عن مصيرها بنبرات مخيفة . يزأر فى وجه خصمه المجهول المدجج بسلاح خبيث لم يعرف بعد كنهه أو كيف السبيل إلى مواجهته .

– تكلم لو كنت رجلا بحق يا .. يا ... يا ..

تملكتها دهشة غريبة .. تحول البريق السعيد فى عينيها إلى لمعان من نوع آخر يعكس التفكير المكثف والتحليل العميق لما يحدث . هذا الزوج الرومانسى الحساس ذو الأصابع الرقيقة التى تعزف الموسيقا وتكتب المسرحية وتصمم المشروعات ، كيف ينطق بهذه البذاءات المنتقاه دفعة واحدة وبصوت لم تسمعه من قبل حتى فى أقصى نوبات غضبه وثورته . وهل ما تسمعه وتراه الآن مجرد استكمال لدوره المسرحى معها فى الحياة ، أم أنه لحن جديد يعزفه لأغنية لم تسمعها بعد وإن كانت امرأة أخرى قد سمعتها من قبل . أم أنه تصميم هندسى مبتكر لوسيلة خادعة يهرب بها من مواجهة المأزق . أم أن الغضب الصادق قد انطلقت زعابيبه سخطا على رجل غامض قرر مناصبته العداء وتدمير حياته دون مبرر ؟

فوجئت به يرتبك قائلا لى فى سخرية

– أسمعها مواهبك وأظهر على حقيقتك يا سافل .

ثم أغلق سماعته على الفور .. واستبعدت بالطبع أن يكون صديقا .

* * *

- ٢ -

طرأت ببالى فكرة الاستعانة بالجن لمعرفته . فى اللحظة نفسها تجاهلت الفكرة إذ رأيت فى نفسى إنسانا هازلا . ومالى أستنكر مهزلة كهذه والحياة كلها مهزلة كبرى وأن أستعين بالجن على الإنس فما فائدة ذلك الرأس الكبير على كتفى . رغم ذلك فانا لست أعرف كيف أتعامل مع الجن بحيث أضمن ولاءه وأتقى أذاه . ربما كنت بحاجة إلى ملاك ، فمخلوقات الله جميعا مسخرة بأمره فى خدمة الكون .. وهل من المحال أن يتحد الطين والنار والنور فى تكامل كونى بينى وبين جنى وملاك ، أم تهجر الأسماك بحارها وتزحف إلى الأرض تلتهم ما عليها من أحياء ؟

الورقة والقلم ولا بديل . لتتدفق الأفكار وليتربع العقل على عرشه العظيم فيجود بقدرته الفائقة على تجميع المعلومات وتحليلها ، ولا يطوف بزورق حياتك فى غير بحار المهنة والموسيقا والمسرح والأسرة وعالمك الخاص ، ويضحكنى أن تكون مادة العقل قطعة طرية من لحم غير متماسك لا تستقر فى قبضة اليد لو أطبق عليها قبل أن تتماسك بفعل الماء والنار . ولأنى لا أحب أكل المخ فقد تمكنت فى زمن قياسى من إعداد أربعة جداول . بكل جدول قائمة طويلة بأسماء معظم الأصدقاء والأقارب والمعارف والزملاء والأحباب . كلهم من البشر . لكل منهم يدان وقدمان ورأس وصدر ومؤخرة وعضو تناسل .

ثم إنى أعدت بكل الرضا ترتيب تلك القوائم ترتيبا تنازليا طبقا لضرورة وجود أصحابها فى حياتى بحيث تنحصر الشكوك دائما فى ذيل كل قائمة

وتتضاءل على رأسها . وقد تبع ذلك أن حصرت الذيول الأربعة - المشكوك في أمرها - في جدول واحد مقسم إلى أربعة أقسام ، إذ أدمجت الموسيقا والمسرح تحت بند الفن .. وفي المساء وجدت نجمة على وسادتي .

وضعت الهاتف أمامي وبجواره جهاز التسجيل★ مجتهدا بكل ما أوتيت من قدرات أن احتفظ بنبرات صوت عدوى في ذاكرتي السمعية حتى أقارنها بنبرات الأصوات التي سأخاطبها وأسجلها على الشريط .

ولكن بأي الأصوات أبدأ من هذا الكوكب الكبير الذي تهيم عليه بلايين الزواحف والبشر والطيور والأسماك والأشجار التي يقال أنها جميعا من أصل واحد . بأي منطق أترك هذا الكيان الضخم بمساحاته اللانهائية وفضائه الأزلي لأحصر تفكيري في بقعة صغيرة عليه تحيط بها رمال الصحراء من كل جانب فأبذل من فكري ودمي وأعصابي بحثا عن مجهول خيل اليّ - مثلما خيل إليه - أنه أهانني بكلمات تناثرت في الفضاء . نطقها بنفس اللغة التي أتحدث بها ، وإلا لما فهمت مدلولها السخيف . أيكون منطق الجدولة والاختصار والترتيب التنازلي والتصاعدي والتباديل والتوافيق ونظرية الاحتمالات جديرا بكل هذا العناء ، أم أنه خيط سراب كتب على أن أتعقبه حتى يموت أحدنا قبل أن يصل إلى الآخر ؟

هكذا كان لابد - ومازلت لا أدري لماذا لابد - أن أبدأ من آخر تجربة في عالمي الخاص الذي أكاد أخفيه حتى عن نفسي . ذلك العالم الذي أعيش فيه متعتي وعذابي تحت علامة استفهام في حجم الهرم الأكبر .

منذ طفولتي أعشقه ..

في السابعة من عمري كنت أتحسس بيدي الصغيرتين ساق أم أنور صديقة أمي في شغف شديد ، وهي منفجرة في الضحك . تنهى أمي عن زجري لوقاحتي وتطلب منها أن تتركني أفعل بساقها ما أشاء ، قائلة في

★ كتبت هذه الرواية قبل شيوع التليفون المظهر لرقم الطالب وكذلك الآنسر ماشين

صدق أنها سعيدة بذلك . فأفرح وأتشجع وأتجرأ وأصعد بيدى وأهبط ملتذا بنعومة ذلك الشيء الطرى الأبيض المخروط . تحاول كفى الصغيرة احتواءه من الأمام والخلف . غير أن اعتزازى بالخلف كان فائقا حيث يزحف السرور فى عروقى ، وتسرى فى كيانى الضئيل نشوة غامضة عارمة لا أدرك بواعثها الكامنة فأنعم بالذوبان فى مصدرها الظاهرى وتحتوينى سعادة حارقة تزداد اشتعالا كلما ازدادت ضحكات أم أنور تصاعدا حتى تدمع عيناها الواسعتان وتهتز مرحا وسعادة خصلات شعرها الكستنائية . ويتعلق بصرى بفهما المكتنز حين يكشف عن صفين من أسنان مبهرة فى بياضها الثلجى ودقة اصطفافها ولمعان طبقة اللعاب الرقيقة على سطحها المصقول .

الساق والأسنان والشفتان والضحكات المجلجلة ونظرت أمى الزاجرة ، مازالت جميعا محفورة فى ذاكرتى حتى لحظة رنين الهاتف ورؤيتى لبريق عينى تغريد . مازالت ماثلة أمام عينى رغم إصابة أم أنور بالسكر وقطع ساقها اليسرى التى كنت أفضلها على نظيرتها وأنعم بالتصاق أناملى الصغيرة بلحمها المدملج المشدود .

آه .. أيتها الساق الحبيبة كم أسفت لفراقك طفلا وشابا وكهلا . أنت جزء من تاريخى حتى بعد أن غاب الربيع وتساقطت دموع الشتاء على عمرى.. تلك لحظات عاشقة لا تريد – مثلما لا أريد لها – أن تموت . أنت الآن صيحات بلبل قد غاب عن زمنه .. أنت ذرات ضئيلة من رمال تتطاير فى صحراء بلادى الشاسعة فكيف استحالت نشوتك إلى عدم ؟؟

منذ طفولتى أعشقه ولا أتصور قوة تغنينى عنه ..

أما أم رجب فكان نصيبها من عشقى أعظم وأفدح . كما كان حظى من جسدها أوفى وأكثر . كانت أم رجب كائنا عملاقا بغير مبالغة. تعاقب الغزاة على مصر من فرس ويونان ورومان وعرب وانجليز يمكن أن يقدم تفسيرا مقبولا لعملقتها مثلما يقدم التفسير لقصر زوجها ذى الشارب الكث الطويل

المنتصب من جانبيه إلى أعلى .

فلاحة من طين الجنوب .. جمال وحشى يضرب الفقر فى نخاعه بكل ما أوتى من عزم دون أن ينجح فى تشويهه . تغضب من زوجها العجوز الذى لا يستطيع حمايتها من بطش ابنه الشاب وصفاقته فتترك له البيت هاربة إلى أمى . تحتمى ببيتها وشخصها . تلوذ بهما من ضعف الزوج وتخاذله وقلة حيلته وضيق رزقه وحياته المقفرة الجدباء الخالية من كل شئ عدا حبه العليل .

وفى الليل لا تتيح لها ظروف المكان إلا أن تبيت على فراشى وكأنما أمضيت من عمرى اثنى عشر عاما فى انتظار تلك الليلة كى تشاركنى فراشى امرأة على مشارف الأربعين .. يتجاوز طولها طول الفراش ، ويحتل جسدها العريض عرضه إلا قليلا .. وحين يتجاوز الليل منتصفه يكون شخيرها قد تجاوز فضاء غرفتى الضيقة وعيناى مفتوحتان على اتساعهما أرقب هذا الكنز الضخم من اللحم البشرى الأبيض المتخم بالثراء . وخيالى عامر بدنيا مجهولة الأصل مترامية الأطراف والأبعاد والأعماق والسماوات والأرض ، منبهر بكل ما يغلفها من أسرار يحيط بها الغموض . تتسلل عوالمها الخفية فى عذوبة ساحرة إلى وجدانى الأخضر الهش ، فأدفن جسدى بأكمله حيا ميتا بين ثنايا تلك الثروة التى هبطت على من حيث لا احتسب . وأظل ساهرا برعشتى الحائرة حتى الفجر ، عابدا متفانيا ، حتى يسطو على جسدى المنهك سلطان النوم فلا أشعر بزمان أو مكان .

منذ طفولتى أعشقه ولا أتصور قوة تغنينى عنه أو تزهدنى فيه .. إنه عالم يخلو من الأعداء ، وبعد عامين تصحبنى أمى فى زيارة لصديقتها الثرية أم بطرس . أجلس معها فى غرفة الضيوف ننتظر خروج المضيفة من الحمام ، وأسمع بعد قليل صوتها الناعم الريان ينادى أمى كى تتسلى معها بالحديث حتى تخرج . تتركنى أمى وتعبر الصالة المؤدية إلى الحمام ، تعقبها أذناى وقد استنفرت كل خلايا أعصابها السمعية وراحت ترصد

الكلمات المتبادلة بينهما حرفا حرفا . كان موضوع الحديث فى بدايته غير ذى أهمية عندى . لكنه مس فى لحظة صلب وجودى بأكمله حين سمعت أم بطرس تقول لأمى فى دلال .

- لا يهمك .. إنه صغير ، والتعرية عليه حلال .

كنت حتى هذه اللحظة أكن لأم بطرس حبا من نوع خاص يختلف عن حبى لأم أنور وأم رجب وأمى . فقد كانت دائمة المرح محبة للضحك والتفكه . كما أن يدها كانت سخية بالحلوى والنقود . لكن عند سماعى لقولها الأخير شاب شعورى نحوها شىء من القلق ، إذ تستهين بى لمجرد أننى صغير لا ينتمى إلى عالم الرجال حيث يخضع عرى النساء أمامهم إلى الحلال والحرام . غير أن شعورا غامرا بالبهجة قد استولى على شعورى بالقلق واستوعبه فى يسر حين ترامت إلى سمعى كلمة التعرية .

ولم يكذب حدسى ، إذ خرجت أم بطرس من الحمام فى قميص وردى شفاف مازالت نقوشه الرقيقة الدقيقة مطبوعة فى ذاكرتى وكأننى أراها أمام عينى الآن . وما الفرق بين الحلال والحرام عند أمى والحلال والحرام عند أم بطرس يا ترى . ولماذا لا أقبل حلال أم بطرس وأرفض حلال أمى لو وافق الأمر هواى فكان حراما بأحد المعيارين ؟

أما ما شف عنه القميص الوردى فقد رأيته فى منامى بعد مضى أكثر من عشرين عاما على ذلك اليوم . سحب ملونة وفضاء سماوى لا حدود لقبته التركوازية الصافية كالبللور . نافورة تنبعث منها خيوط الماء فى ألوان قوس قزح ، وبخور معطر يعبق الفضاء برائحته المسكرة ، ودائرة من الحسان تحيط بى . يلوحن لى بمناديل خمرية وفستقية . يرقصن على موسيقا تنبع من القلب وتصب فيه . وحين تميل قدودهن يفوح عبير اثدائهن الفلية فأطير إلى سماوات علا .. وتتوسط الدائرة أجمل مارأيت فى يقظتى ومنامى من جميلات . تخصنى بابتسامة من ثغرها فأرى الجنة وآكل من ثمارها ويزول عنى الطين فأذوب فى نهر الفناء الأبدى .

جلست أم بطرس وهى تطلق النكات لأمي الواحدة تلو الأخرى ، وأمى تحاول جاهدة أن تمهد للحديث فيما جاءت لأجله من أمر حيوى . وبانتهاء الزيارة كان خيالى قد ابتلع أم بطرس تماما بحواسي الخمس وما فوقها من حواس خفية ، حتى أننى لم أستطع تناول الغداء فى ذلك اليوم ، فالطين شيء . والنار شيء . والنور شيء .. ومن الجنون أن ألمس بوهمى حدود المحال .

* * *

فى الخامسة عشر من سنواتى التى تورقت وتحبرت رغم أنفى دق جرس الباب . كانت منيرة . ابنة الجيران . بيضاء كالقشدة . تهيج أعصابى كلما حضرت بصحبة أمها . نتبادل الابتسامات فحسب . أرسل إليها نظراتى الخبيثة على موجة مراهق بلهاء بينما ترسل بنظراتها الموحية على موجة الخبرة والمعرفة فلا تلتقى الموجتان . صراخ جسدها بالاغراء كان تلقائيا وكنت الشاهد الوحيد . فرصة العمر يا ولد .

- أين أمك ؟
- بالخارج .
- وأخوتك ؟
- معها

دار الحديث على الباب وقلبى يكاد يحتضر تحت قدميها أما عيناى فقد صارتا إلى كاحلين من المرمر . لم أجد بنفسى الجرأة ولم تواتنى ذرة من الشجاعة كى أدعوها إلى الدخول .. فدخلت .

فى عينيها حديث أكاد أفهمه لكنى أحوم حوله ولا أستطيع الولوج إلى عالمه واقتحام قدس أقداسه . تعوزنى خبرة الخامسة والأربعين مثلما تعوزنى اليوم نضارة الخامسة عشر . وينتقل قلبى رغم نزيفه إلى الفراش الذى استلقت عليه بجرأة أذهلتنى وأطارت عقلى من رأسى . أى قيد لعين ذلك الذى كتفنى أمامها غير الخوف والجبن والحرص وخشية الصد . لو كان

الوازع دينيا لاسترحت ولكنه لم يكن كذلك .. اللعنة . لو واتتنى الشجاعة كسرا من الثانية لتسللت يدى ولو للحظة إلى يديها . أى قوة لعينة زرعت فى طفولتى ذلك التردد المخزى الذى مازال يلازمنى حتى هذه اللحظات الكريهة من عمرى . لم يكن نداء عينيها يحمل أكثر من معنى ، والعجيب أننى فهمته واستوعبته وبت واثقا منه إلى درجة اليقين إذ تسلل إلى شعيرات دمى وتمكن من خلاياها واستبد بها وصال وجال وعربد حتى طفح على خديها المتفجرين بنداء الحياة .. لكن الشلل أصابنى بكبرياء الجبن ، لست أدرى أم جبن الكبرياء . وكنت على وشك الموت فى تلك اللحظات حين فرق بيننا دهر من الصمت الثقيل قبل أن أودعها إلى الباب دون أن ألمسها ، وكفى تصب علىّ لعناتها وأسمعها تكاد تثقب طبلة أذنى فقد حرمتها من لمسة العمر .

* * *

عالمى يخلو من الأعداء ...

ملا الكاسات وسقانى

نحيل الخصر والقد

حياة الروح فى لفظه

سبانى لحظه الهندى

مليمى لا تسل عنى

وخلنى على عهدى

يجلس الشريدى فى جلبابه الأبيض الأنيق على الدكة الخشبية العالية فى دكانه الواسع الكبير ، وعوده بين يديه ، يقفل دولابا على المكواة ووابور الغاز الضخم ودولابا آخر على ملابس العملاء - كشأنه كل مساء - وتجتمع الصحبة . أوركسترا كامل من عشاق الحياة . كواء وخباز وخياط وتاجر ومعلم وإمام مسجد وأمين مكتبة اسمه محمود كامل . يهتزون طربا مع الأنغام . أتسلل من البيت لأستمع اليهم فيستغلوننى لأعد الشاى لهم . أرحب من قلبى رغم تحذيرات أمى لى ولهم ، فالدكان يقع أسفل شقتنا بالطابق الأرضى مباشرة .

يبهرنى عالم النغم وأتعجب حين أستشعر وجود رباط خفى بينه وبين ابتسامة أم أنور وأمواج البحر ودموعى لحظة الحزن ودموعى لحظة الضحك . أود لو ظللت معهم حتى ساعة متأخرة من الليل متغاضيا عن غضب أمى ، فأنا فى حماية أبى وسوف يصحبنى معه بعد انتهاء السهرة .

أكاد أجن لأنى لا أفهم معانى الكلمات التى يرددونها خلف الشريدى ويسمونها موشحات ، ولكنى أرددها معهم فأطير أحيانا وأجد قلبى يدق بسرعة مخيفة وأحيانا أود لو أجرى بأقصى ما أوتيت من قدرة لأصل إلى مالا نهاية ..

ويوما توعك الشريدى فترك دكته لقادم جديد لم أره من قبل وجلس إلى جواره مكتفيا بالاستماع . وغنى القادم الجديد .

«مغربى» .. مستضحكا فى قرب ساق .. يمزج الراح بأقداح رقاق

فوجئت بأحد الجالسين وكانت شهرته «السيد دوكا» يصيح فى غضب كاسح وكأن ثعبانا لدغه .

– مغربى ؟؟ .. إنزل يابن الكلب يا جاهل .

توتر الجو والمكان . ذهلت لصفاء تعكر وقد خلته لايتبدد أبدا ، وكيف تستقيم الموسيقا مع العداء . كيف ينسجم الجمال مع القبح ؟ . فجأة انفجر الجميع فى نوبة من الضحك المتواصل حتى أننى ضحكت معهم وأنا لا أفهم شيئا مما حدث وما لبث الصفاء أن عاد .

أوضح لى أبى أن سبب الخلاف هو إضافة حرف الغين فأصل الكلمة «مربى» . استوضحته المزيد فشرح لى معنى البيت بأكمله ، وأذكر أننى فهمته بتصور خاص وأحببته وتطلعت شوقا إلى اليوم الذى أكبر فيه فأصل بالنغم إلى جسد أم أنور بأكمله لا إلى ساقها فحسب ، حتى أستطيع أن أردد مع الرجال موشحاتهم الحبيبة .

* * *

عالمى حالتى .. وحالتى عالمى ..

فى كتاب الشيخ مهران لتحفيظ القرآن الكريم ، ودون رجفة خوف من خيرزانته اللعينة أو نظرات عينيه اليقظتين رحت أسمع له سورة «التين» دون أن أقع فى خطأ واحد فى تشكيل الحروف . عبر عن إعجابه بى قائلا :

– أبوك رجل فاضل .

وددت لو سألته ما الفضيلة ولكنى ترددت . خيل إلى أنه يكذب توددا لأبى . اكتفيت بفهمى للفضيلة بمعنى الطيبة . شعرت بالتناقض بين هذا المفهوم واهتزاز أبى طربا بالموسيقا والكلمات التى تتحدث عن الخمر والكؤوس . على الفور ظهرت فى مخيلتى أم أنور فالتبس علىّ الأمر فى البداية ثم اهتديت إلى إحساس خفى بأن أبى ليس إنسانا فاضلا وأننى أيضا على شاكلته ، فسألت الشيخ بجرأة تعجب لها .

– كيف عرفت يا مولانا ؟

أجاب فى تلقائية .

– قراءتك الصحيحة تؤكد أنه يتابعك فى الحفظ وينشئك على الدين.

ومادخل التنشئة على الدين فى الحفظ والقراءة ؟

– لكنه لايصلى الفروض فى أوقاتها يا شيخ مهران .

– حين لا تراه يصلى فى المنزل فهو يصلى معى فى الجامع . وهل تواظب أنت على الصلاة ؟

– نعم .

– لماذا ؟ هل تخاف من عقوبته أم من خيرزانتى ؟

– بل لأنى أحلم ليلاً ونهارا بدخول الجنة والبقاء بها .

– أنعم الله بها عليك يا بهاء .

أشياء كثيرة جعلتنى أحب الجنة . ترتيل الشيخ مهران بعشق لايوصف لسورة الرحمن قبل صلاة العصر فى الزاوية المجاورة لبيتنا . الموشحات

التى يغنيها الشريدى . لحظات غروب الشمس خلف البحر وإحساسى بأنها ذاهبة إلى قوم آخرين يعيشون خلف هذا البحر بعيدا عنا بآلاف الأميال ، وبأننى سوف لا أتمكن من لقائهم إلا فى الجنة حيث الفاكهة والنخل والرمان والفتيات الحور الحسان اللاتى يشبهن الياقوت والمرجان . ولكنى ساءلت نفسى ذات مساء .

– ألا تصلى إلا طمعا فى الجنة وخوفا من النار ؟

قال لى أبى

– عندما تكبر وتفهم وتقترب ستصلى محبة لله وشكرا وعرفانا .

– وكيف أقترب يا أبى ؟

– عندما أنجح أنا فى القرب ستكون أول من أعلمه ذلك .

***

.... من هذا العالم الذى ألقى بظلاله على أوراقى بدأت المحاولة .

لقد عشته وحدى كلص يخفى مسروقاته من التحف الفنية ولكنه لايخاف أن يسرقها منه أحد قدر خوفه أن يعرف الناس أنه لص ، فمتعته ليست فى السرقة الخالصة لأجل السرقة ، ولا فى اقتناء المسروقات لكونها ثمينة ، ولا حبا فى اقتنائها لمجرد الحيازة والتملك ، ولا رغبة فى عصيان الخالق والتمرد على أوامره ونواهيه .. وإنما هى متعة شيطانية شرهة شرسة أكولة كنار جهنم تحرقنى بشهوة غريبة غامضة تتفجر باللذة وتموج بثورة الجنون، ويكتسح طوفانها فى جرفه الحلال والحرام معا بلا تفرقة ولا تمييز والحقيقة أنني طالما تمردت عليها رغبة مني في التحرر من قيدها الرهيب، مستلهما ما تحصنت به من موروثات تراثية هزيلة ولكن دون جدوي. دائما كنت أعجز في النهاية فأشهر أمامها استسلامي وإفلاسي، ويغمرني شعور جارف بالندم يظل يعذبني حتي أنفلت من إساره بالمزيد من الانغماس فيه والاستسلام له .. فمنذ طفولتي أعشقه ولا أتصور قوة تغنينى عنه أو تزهدنى فيه.. حتي بعد رنين أجراس العدو .

***

- ٣ -

بدأت من الآخر ....

- نيفين .. أنا بهاء .

عبر الهاتف أتانى صوتها الرقيق معاتبا .

- نتحاسب فى المكتب .

- لن أحضر اليوم . دعى فاروق يوقع نيابة عنى كالمعتاد .

- ربما يرفض ، فقد ضج أخيرا من لامبالاتك .

بينى وبين أخى ونقيضى فاروق صداقة ظالمة ، تلزمه أن يحمل عنى فى صمت معظم أعباء الإدارة ، فهو الدقة والانضباط وأنا الفوضى والتسيب . حبى لعملى خاضع لأهوائى . أتفنن فى إنجازه دون مراعاة لاعتبارات الوقت والجهد والمكسب والخسارة . لايشك فى أن ١+١=٢ لأنه يرى الدنيا ، أما أنا فأعيشها ، ولذلك فإنى أستطيع أن أؤكد بعشرات الأدلة الدامغة أن هذه المعادلة ليست صحيحة فى جميع الأحوال .

يتحمل شطحاتى وتقلباتى وإنصرافى بين الحين والحين عن عملى إلى تفانينى الأدبية والموسيقية ، لاعنا يوم اشتركنا فى تأسيس مكتبنا الأستشارى الهندسى . وقد ضاعف من أعبائه أننى لم أتخل عن وظيفتى بإحدى مؤسسات القطاع العام . لم يصدق أننى أحب العمل وسط آلاف من الناس أكثر مما أحبه فى مكتب مغلق على بضعة أفراد يتحركون كقطع معدنية صماء ، شعارها الصمت الأبدى .

والمسألة أنه منذ أسابيع قليلة صدمت عربة مسرعة زوج نيفين وهو عائد

إلى بيته فأودت بحياته . كان يسير على الرصيف بعيدا عن الشارع . إنحرفت العربة تجاهه تماما فقتلته ثم توقفت على الفور بعد أن عادت إلى الشارع . لم تحتمل نيفين وقع الحادث عليها كزوجة وأم لطفلين ، اذ فوجئت بزمن ولى منها بغير إنذار وآخر حل عليها بغير اذن .. أما أنا فقد صار ملمسي بنفسجيا .

بدأت المأساة حين تخيلت نفسي – وأنا لا أمت بأدنى صلة من صلات القرابة إلى نيفين – سائرا مكان زوجها في أمان إلى منزلي ، وإذا بآلة متحركة هوجاء تقتلع تاريخي وجذوري ودمي ولحمي وعظامي من الحياة . عبثا حاولت التحرر من ربقة هذا الهاجس الذي اكتسحني بقوة طاغية . كلما حاولت نسيانه أو الفكاك من أسره تضخمت الصورة أمامي أكثر وتجسدت ، فأرى الناس يلملمون رفاتي ويغطونه بجريدة من جرائد المعارضة ، ويهرعون إلى بيتي ليطلعوا زوجتي وأبنائي على الخبر الأليم وهم يثرثرون بأصوات جليدية قاتمة .. لا حول ولا قوة إلا بالله . كان ماشيا في حاله على الرصيف . لكل أجل كتاب . كان رجلا طيبا . آه يا أولاد الـ ...

هكذا كان حالي وأنا أقدم العزاء لنيفين ، متوحدا معها في الألم على مصيرها ومصيري . منصهران معا بأحزاننا في الدهشة والذهول وانعدام الرغبة في تصديق ما حدث لي أو لزوجها . قلت لها كما يقول الناس :

– البقية في حياتك .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

عندما صبت نظراتها الملتاعة في عيني تبين لها أن ما يقوله لساني شيء وما أقوله شيء آخر . كيف انفتحت لها أبواب أسراري كيف كانت على يقين من توحدي معها في صميم مشاعرها الجريحة ؟ ..

استبقت يدي بلا وعي منها بين كفيها لحظة المصافحة ، وتوقف انثيال الدمع من عينيها السوداوين . كنت أراهما لأول مرة منذ تسع سنوات من العمل في مكتب واحد ، وقد فجر الحزن ما كمن بهما من براكين الجمال الملغز وحيرة الوجود الرائعة . لا علم ولا منطق ولا فلسفة . جميعا تقزموا

أمام لغز مخيف يعصّر الأحاسيس ويمزجها بين كائنين معذبين بحيث لايكون هناك سبيل إلا أن يلتحما فى عناق جحيمى هائم ، يطوى تحت جناحيه الحمراوين روحين خائفين من المجهول . وقد كان العناق ... لم أكن أعلم أنه سوف يعقبه رنين جرس وسماع صوت «عدو» ، وكانت محاولتى مستميتة كى أصرف نفسى عن نفسى . رويت لها ماحدث تفصيلا ثم قلت لها مترددا فى لهفة :

– ربما يكون أخاك أو أحدا من أقارب زوجك .

– انك تثير جنونى . أهذا حديث يصلح للتليفون ؟ لماذا لا تحضر ؟

– هل يعلم أحد غيرنا بعلاقتنا ؟

– أنتظرك الآن بالمكتب .

وأغلقت السماعة فى غضب رقيق .

نيفين هى آخر محطة توقف عندها قطار عالمى الخفى فى نفقه الثعبانى الطويل بظلمته الحالكة ونوره الحارق وعمقه الغائص فى الأسرار . أمن المعقول أن تبوح بسرنا لمخلوق ؟. الجنون وحده يبيح لها أن تصرح لكائن فوق الأرض أو تحتها أننا نتعانق خلسة بين الحين والآخر كمراهقين صغيرين بحرارة ملتهبة تعود بسنواتنا إلى الوراء . كلانا يشعر أنه فى أشد الحاجة كل يوم إلى أن يضع رأسه على صدر الآخر ولو لدقائق عاجلة مسروقة من العقل والزمن وعيون العاملين معنا بالمكتب .

.. ولم التهافت على الخطر وكل الظروف تيسر لنا خلوة مطمئنة فى أى مكان آخر لبث الأشواق وتبادل الحنين والقبلات ؟.. لم يفكر أحدنا أو يجرؤ على مصارحة الآخر بذلك ؟. لئن كان الخوف من الخطيئة فما معنى ما نفعله ؟ .... أتجرؤ نيفين أن تصرح لأحد بقولى أننى صنعت لها من نفسى معبرا تنتقل عليه من شاطىء الحيرة والظلمة والكدر إلى شاطىء المستقبل المأمول ، وأن من حقها أن تطأ المعبر أو أن تبنى فوقه بيتا صغيرا مؤقتا لاتغادره إلا بعد أن تجتاز المأساة لتبدأ حياتها الجديدة مع الرجل الذى

تختاره . أهذا كلام يذاع أو ينقل ولو إلى أعز الأحباب ؟.. ويخاف قلبك من نسمة الخريف الشجية فلا تعى ماذا تفعل بأرملة ترتدى ملابس الحداد على زوج لم تزل جثته ساخنة . ومشاكل الأهل والأقارب والميراث وحصار المجتمع والقيل والقال يا نيفين . وكيف تقيمين وحدك مع طفلتيك والرجال عيونهم نهمة زائغة لاتشبع ، وأنت مازلت صغيرة وجميلة .. ولماذا لاتتزوجين من أخيه ودق جرس الهاتف فلم تنتظر تغريد إشارة منى وإنما تناولت السماعة بسرعة . لم يكن بعينيها بريق . كانتا منطفئتين ، شبيهتين بعينى كاترين .

– أين دون جوان العجوز العيل ؟

– من تقصد ؟

– ألا تعرفينه ؟ بهاء كامل . الناقص . ابن الكلب .

سارعت تغريد بسحب جهاز التسجيل وهى تقول له فى ارتباك ظاهر :

– دقيقة واحدة من فضلك .

وضغطت بحرص على الزر . لكن يبدو أنه تنبه إلى حدوث ما ينبىء عن محاولة للإيقاع به فسارع بغلق سماعته بينما راحت تغريد تصيح فى عصبية الو . آلو . آلو ...

دون جوان . العجوز . العيل . الناقص . ابن الكلب ...

هكذا يرانى «العدو» لحظة انفعاله وهذا من حقه . ولأن الإستهانة بالعدو قد سبق أن كلفت أسرتى فى عام النكسة ثلاثة شهداء و ثلاث أرامل وسبعة يتامى لم يفد أحدهم من الأوسمة والنياشين شيئا ، فإننى لم أستهن برؤيته بل أخضعتها للمراجعة والتأمل .

دون جوان .. ربما . رغم أنى لم أخدع امرأة واحدة ، ولم أكن يوما شجاعا لدرجة التهور ، ولم أشعر بالغرور والخيلاء والتكبر ، كما لم أتخذ – مثله – من ميكافيللى مرشدا أتبع خطاه . ورغم رفضى التام لميكيافيللى وشعورى نحوه بالامتعاض إلا أننى لم أناصبه العداء . لقد مارس دون

جوان الرذيلة طولا وعرضا وعمقا فنزل به العقاب شديدا صارما ، أما أنا فلست أنتظر لنفسى نهايته أو أتوقع مثيلا لها ، فأنا أكتفى بالدوران فقط حول الرذيلة متحاشيا السقوط فى بئرها ، كما أننى من أشد المبهورين بسفينة الفضاء الأمريكية ديسكفرى . والحق أن حالتى بحاجة إلى المزيد من التأمل ، ولئن عجز دون جوان عبر عصور سالفة عن التحرر من عذاب تناقضه ، فإننى أحلم بأن يتكفل عصر المعلومات بحل أزمتى ، وذريعتى أننى أحب شوارب القطط المشمشية .

العجوز .. ربما . فالمسألة نسبية ويرجع الفضل فيها إلى يهودى ضخم الرأس ، كان الأخير على فصله الدراسى فى طفولته . ولا يستطيع عالم أن يحدد لنا رقما يقرر أنه سن العجز . وما خمسة وأربعون عاما من العمر ، وما العمر كله ؟..

العيل .. صحيح . كلنا عيال الله ولن تدخلوا ملكوت السماوات مالم تصيروا كالأطفال . أنا عيل حقيقى بمعنى الإعالة والطفولة ، وأفتخر أحيانا بذلك مهما جنيت من ندم وإنى لأتحدى عيلا فى الخامسة والأربعين أن يتمكن مثلى من القدرة على الدهشة والأنبهار . هناك استثناء واحد: محمود كامل . أبى .

الناقص .. يووه . الكمال لله وحده يا «عدو» . أنت تقرر حقيقتك قبل أن تقرر حقيقة البشر بأكملهم وبهذا لم تضف جديدا .

ابن الكلب .. آه . هذا انفعال زائد .. أنت تعلم يا «عدو» أن الكلب حيوان . فأنت تبدد سعرات حرارية من طاقتك بلا عائد حتى لو كنت من المؤمنين بأن جدك الأكبر قرد . ولكن كيف بلا عائد ؟.. ألم أثرك بفعلتى المجهولة وأوترك وأقلب مزاجك ؟. ألم أدفعك بجريمتى الغامضة إلى المعاناة فى البحث عن النور الداخلى بأعماقك وأعماقى ؟ .

ألقت تغريد بالسماعة إلى مكانها وانصرفت إلى شئونها وانصرفت إلى ظلمى لنفسى ولأرملة عانى جسدها من الجوع سنة كاملة سبقت ترملها .

ومن ذا الذى يعرف إن كانت عينا نيفين أذابت فى دموعها قبسا من فرحة الخلاص بالموت ونشوة الانعتاق من الجوع . حتى أنت لا تعرف رغم روايتها لك عن مرضه الخبيث الذى أراحته منه العربة . وإن عرفت فلا تستطيع أن تجزم . فالذعر القاتل والعاطفة المحمومة يتنازعان عينيها لحظة العناق ، حيث العذاب والمتعة والفزع من سيل الاحتمالات المتدفق لحظة الجنون ... كأن يفجأ بها فاروق فى حضنى على غير تصور منه فى حلم أو كابوس ، وهي التى انتقاها من بين العشرات من نظيراتها لتكون ساعده الأيمن . وكيف يكون شكل ملامح وجهك فى تلك اللحظة . كيف تنفلت ضربات قلبك وإلام تؤول قدرته على احتمالها . وماذا لو توقف فجأة عن النبض ؟. هل تندفع دماؤك بأكملها إلى رأسك دفعة واحدة أم تعجز ساقاك عن حمل جسدك المحموم بالوجد فتسقط متخاذلا على الأرض أمام أخيك الأصغر . وإلى متى تظل جوعانا إلى الحب عطشانا إلى العاطفة بغير شبع وارتواء . وهل تنسى إن نسيت يا من تطرب أذناك لسماع نقيق أناث الضفادع والأنفاس الآدمية اللاهثة :

– أنا خائفة . هناك الساعي وماجده .

– وما الذى سيجيء بأحدهما إلى مكتبك ؟

– لا أعرف . ستكون مصيبة لو رآنا أحد .

– لم نعذب أنفسنا هكذا ؟

ولحظة خروجك كدت تصطدم بسكرتيرتك . جاءت ماجدة تبحث عنك لأمر عاجل فقد اعتادت وجودك بمكتب نيفين .. ومرة كان الساعى ولم يلفت نظره شيء . ومرة كان أحد المهندسين ولم يلحظ ارتباكك أو اصفرار وجهك وارتعاش شفتيك لانشغاله الشديد بأرقامه التى هى أرقامك . ومرة كان فاروق ولم يخطر بباله شيء . فى تلافيف عقله إشارات حاسمة تقول باستحالة أن يستغل أخوه ضعف موظفة تتقاضى منه راتبها الشهرى ... فى دهاليز الماضى تقبع «لوزه» بركن سحيق . عربية من الضفة لست أذكر

ما الذى جاء بها إلى مصر حتى انتهى بها المطاف إلى بيتنا تخدم فيه وتعاملها أمى كـأبنتـها ومـالك الملك يعز من يشـاء أو يذله ، أما أنا العبد العاصى فقد شعرت أمام جمالها الوحشى الأخاذ أن فى كثير من الأمور حكمة عليا يستعصى فهمها على عقول البشر . فاروق التلميذ المنضبط يوارى وجهه خجلا منى . كانت نصف عارية . ألجمت روعة جسدها المثالى لسانى فكاد أن يتدلى من فمى إلى الأبد . إستسلامها فى رقدتها المستكينة على الأرض أثار جنونى وشياطينى . انشقت الأرض وابتلعت فاروق . أما «لوزه» فبقيت على حالها فى مواجهة صنم آدمى تنتظر أن تدب فيه الروح . ثارت بيننا عاصفة مزلزلة من الصمت المشحون بنذر الفناء .أفاقت على صفعتى فسارعت بارتداء ثوبها . عندما انفردت بنفسى ندمت على أشياء كثيرة .. كان من بينها توهمى أن «لوزه» تتعرى لتأمين طعامها .. والحق أنها كانت لوزة . أما الحاضر فقد أسفر عن وضع منعكس يخاف فيه الكبير من الصغير ولا عجب .

رغم تعاقب الإنذارات لم تكف . ماذا تقول لو رأتكما زوجة أخيك وهى دائمة التردد على المكتب ؟. أهناك فضيحة أوقع جرسا من تلك التى سرعان ما تسرى أنباؤها فى المكتب ثم فى البيت الكبير ثم فى بيتك الذى لم تهتز أعمدته الفولاذية حتى الآن مرة واحدة . ألا تنتبه إلى الإنذارات الخفية المتعاقبة ، تظن أن كرم السماء مقصور عليك وحدك أيها الطاووس المهزوز ؟. ويوما قالت لك تغريد ورأسك نائم على صدرها .

– أحيانا أخاف منك وأحيانا أراك طفلا .

– وما المناسبة ؟

– المناسبة أننى لست أعرف لماذا تبكى الآن .

– ولا أنا .

– كنت واثقة من هذا .

فى كل مرة تعاهد نفسك على التوبة ولكنك لاتجرؤ على معاهدة الرب

لعلمك بأنك غير جاد ، وأنك سوف تستسلم بأوهى مقاومة أمام إغراء النزوة القادمة . عشش الضعف فى مسام جلدك ونفذت جذوره إلى دمك . منذ زمن طويل تؤرقك فكرة التوبة حتى عن أفعال لم ترتكبها وإنما تتوهم نية ارتكابها بمجرد أن تحين الفرصة ، فتصير إرادتك إلى مصهور شمعى . وتبذل من الجهد مايضنى لتقضى على ذلك الشعور المجحف بالذنب حتى دونما ذنب . ونقرأ فى مسألة التوبة فتأسى على عذاب روحك ، ولكن هل أنا العبد المذنب جدير باستحقاق التوبة ؟.. «ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل . كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى ؟» .. وتنتقل من تعذيب نفسك إلى تعذيب نيفين باستثارة غرائزها دون إشباع . الدفة فى يدك ولكنك تتراجع . هل هو الخوف أم أنها حالتك المجهولة المستعصية على الفهم . تقترب من عش الزنابير فتثيرها وتجرى . تمتزج السادية فى رغباتك بالمازوكية فى دمائك . وقال صديقك الفنان نديم :

- أنا لا أفهم شيئا . كل ماهو صح محطوط فى مكانه الغلط .

وحين فوجئت بإطلاق لحيته وهو الصعلوك الكبير سألته :

- ماهذه يانديم . هيبيز أم جماعات ؟

- الحمد لله . ربنا تاب علىّ .

كدت أجن غيظاً لسماع الكلمة التى تؤرقنى كما لو كانت حلما مستحيل المنال .

- كيف . كيف ؟

- لست أدرى . تحولت فجأة دون إرادة منى .

أمضى حياته مولعا بالنساء والخمر والطبيعة والأصدقاء والطعام والسهر . هو القائل أن المرأة بضعفها وقوتها لم تخلق لشىء الا لتضم إلى صدر رجل يحتويها ويذيبها فى كيانه ويغرقها فى رجولته . سألته بنفس حاسدة .

- ألم تعان حتى تصل ؟

- على العكس . حتى نية التوبة كانت فى الأصل مفتقدة .

وكانت فرحتى بالأمل فى الخلاص قريبة حين دق جرس الهاتف فرفعت السماعة على الفور . واسمع ياحبيب الكل صوت عدوك الوحيد فى هذه الدنيا يقول بوحشية :

- سأعرف كيف أنتقم منك وأدمر حياتك ، ولو اقتضى الأمر سأقتلك .

وأغلق السماعة . هرولت تغريد نحوى متسائلة فقلت لها فى جبن وقور .

- مكالمة غلط .

وقلت لنفسى مادام نديم قد منح التوبة دون جهد من جانبه فإننى سأتجه بقلبى إلى الله خالصا . سوف يعيننى على التحرر من نفسى التى كلما صرفتها عادت تمسنى أحيانا وتلبسنى أحيانا أخرى . أنجو أولا من هذا المطب السخيف ثم يحلها الحلال . عداء لدرجة التهديد بالقتل . فماذا يكون جزاء الزناة واللصوص والقتلة والأفاقين والانتهازيين الذين ينعمون بحياة آمنة على هذه الأرض ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من ممالكهم . حتى عقوبة الجلد لا أستحقها فأنا لا أرتكب الزنا . لكن المؤكد أننى جدير بصنف آخر من أصناف العقوبة أدنى مرتبة من الجلد . أما القتل فلا . ولتعلم يا أول أعدائى أن هناك عدالة تحكم هذا الكون .

ماعدت أقترب من نيفين مرة أخرى واللعنة على تلك العربة التى دهستنى فصبغت أحزانها بلون رمادى مائع . لم أعد أخافها وسأعرف كيف أستقبل نسمة الخريف حين تأتى بلا خوف . ولتواصل الاناث نقيقها كيفما شاءت فسوف أصم عنها أذنى وأتأمل ألوان الطيور والفراشات . قالت نيفين :

- لم أرك خائفا على هذا النحو من قبل .
- خوفى عليك شديد وعلى أسرتى كذلك .
- بل تخاف على نفسك فقط .
- حتى لو كان الأمر كذلك فهو خوف مشروع .
- المسألة من أساسها خطأ فى خطأ والمسئولية تقع علىّ وحدى .

ياه .. كم أحببت دموع عينيها .. ليس الخطأ فى المسألة ياسيدتى ، فالخطأ هو أنا نفسه . تابوت . ذيل بقرة . خنجر . منقار عصفور . أنا حالة .. قالت بنظرة حزينة نادمة تشى بالكبرياء .

– اطمئن . الذى يهددك لا علاقة له بأمرى من بعيد أو قريب .

ولم تشأ أن تكمل ما قالته عيناها .

– عليك بالبحث فى مساربك الأخرى .

وعدت إلى جدول الاشتباه حائرا أيهما المشبوه منا عند الآخر ، وهل أجد فى نسبية أينشتاين تفسيرا للعلاقة بين اشتباهى فى عدو يهددنى بالقتل وبين اشتباهه فى كرجل طعن فى شرفه .. أم أن لديه دافعا أقوى من ذلك؟..

أعدت تغريد الطعام . أقبلت عليه بشهية طبيعية كما لو كان أمر عدوى لايعنيها . شعرت بشىء من الطمأنينة . لو أنجب أبى من كاترين فتاة لما فاق جمالها جمال زوجتى الوديعة المخيفة .

- ٤ -

من المؤسف أننى كثيرا ما أثق بالجداول والأرقام والثعابين ، رغم اكتشافى المبكر أن كثيرا من حساباتى كانت خاطئة ، ورغم أن عديدا من المفاجآت والمصادفات قد أثبتت لى أننى كنت أعبث وأن اجتهاداتى التى أعتز بها لم تكن إلا شظايا من بلور محطم . لكنى - كغيرى من الأذكياء - أنسى هذا كله بغباء محكم وأعود إلى الثقة المسمومة فى فحيح الأرقام والأوراق والخطوط والتوقعات والاستنباطات، والحقيقة أنه أمر محير إذ أفاجأ أحيانا بتطابق الاجتهاد مع سير الحدث كما توقعته . وأمام حيرتى لا أجد الملاذ إلا فى الخضوع لفكرة أننى مخلوق ضعيف لايمتلك من زمام أوراقه شيئا سوى شرف محاولة الاجتهاد والقدرة على الاسترخاء فى أنغام الغروب أو الاستمتاع بسقوط المطر على أغنية حزينة أجترها فى سعادة ، أو الغوص عاريا فى البحر كما ولدتنى أمى ، فلا عداء بينى وبين الأسماك بل كل الحب والتوحد .

أزحت بجداولى وأسمائى جانبا ، مستبدلا الفطرة بحساب درجات الشك والظن واليقين أملا فى التوصل إلى كارهى حتى أبذل له المستحيل فى مقابل ألا يكن تجاهى هذا الشعور . أدفع ثمن جريمتى - التى لا أعرفها حتى الآن - كما يريد كما وكيفا . أكفر عن ذنبى بالوسيلة التى يرتضيها . أقبل العقاب العادل مهما بلغت قسوته ، فكراهية إنسان لى شىء فوق طاقتى ، وإلا دفعنى الشعور بالذل إلى أن أصرخ فى الفضاء إننى مظلوم

ياناس ظلم نفسه . أعترف له وأنا القاضي والجلاد والمتهم أنني ارتكبت الجرم الذي سيدعيه عليّ بالحق المدني والعسكري والتناسلي حتى لو لم أكن قد ارتكبته فهذا أهون عندي وأخف وطأة من أن أصحو لأجد نفسي قد صرت إلى سنجاب أو فقاعه صابون .

ياه .. إن كنت تحسب كل هذا الحساب لعدوك فكيف يكون الأسلوب الأمثل لمواجهته ، وقد قال رجل طيب : «ماذا يصنع أعدائي بي وأنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما ذهبت فهي معي . إن حبسوني فحبسي خلوة وإن أخرجوني من بلدي فخروجي سياحة وإن قتلوني فقتلي شهادة .» .

لاجنة في صدرك ولا بستان ، وإنما قلق وشك وتذبذب وقيود ذهبية . وها هو مخلوق مثلك يمشي على قدمين يبول على أيامك وأوراقك في أذن زوجتك فماذا فعلت به حتى يكرهك بهذه الحرقة ؟ .

– أنت رجل ظالم .

قبل الواقعة بأيام فوجئت به يقتحم غرفة مكتبي بالمؤسسة دون استئذان . اسمه ياقوت ووجهه – أستغفر الله – يذكرني برأس اللفت الشائخ . عيناه مظلمتان يسيل منهما الفقر والغضب . دائم الشكوى والضجر وإذا أراد الله بقوم سوءا ابتلاهم بقلة العمل وكثرة الجدل . لو كان من حقي أن أجزم لأجزمت أن الله أراد السوء حقاً بقوم القطاع العام وخص منهم ياقوت خليل وبهاء كامل . قلت له في تماسك :

– سأتجاوز مؤقتا عن إهانتك لرئيسك حتى أعرف فيم ظلمتك .

لم أجد بأسا في البحث عن العدالة الضائعة للوصول إلى موطن الظلم فربما كان اتهامه صحيحا . بحثت عنها في ضمير الباشا الذي كان يمتلك شركات المؤسسة قبل تأميمها فعرفت كيف نجح في الحصول على الباشوية من الملك وعلى الأرض من الفلاحين وعلى المعدات من العدم ضد قانون بقاء المادة . ثم نجح ضابط برتبة عميد لا علاقة له بالصناعة أو التجارة أو الزراعة أو الاستاكوزا أن يجلس على مقعد الباشا . الأول أتى بأتباعه وهو

محق ، والثانى أتى بأتباعه وهو أيضا محق . سعادة الباشا احتفظ بأمواله فى أوروبا وعاش هناك ناقما على مصر والمصريين وساءت علاقته بزوجته لانغماسه فى اللحم الأبيض والشعور الذهبية والعيون الخضراء والزرقاء وموائد القمار وكؤوس الخمر وخصوبة العمر وروعة الطبيعة على مدى تعاقب الفصول الأربعة . سيادة العميد لم يكن لديه فى الأصل أموال فأصبح مالكا لبعض العمارات والمصايف والمشاتى داخل حدود وطنه الحبيب الذى راح يتغنى بأمجاده ويسبح بحمده فى عبارات ركيكة بين جدران أندية الضباط . وقيل أنه تمكن من نقل أحد البحار إلى موقع آخر رأى أنه أكثر ملاءمة لمزاجه فلم يعترض البحر ولم يعترض أحد . أما علاقته بزوجته فليس لى شأن بها لأن الشرع يسمح له ولغيره بالزواج من أربعة ، وأما أنا فليس هناك عداء بينى وبين سعادة الباشا أو سيادة العميد أو حضرات العمال أو حتى بطاقة الأميريكان اكسبريس .

أتباع الباشا كانوا قادرين على فصل أى عامل فى دقيقة . أتباع العميد خضعوا مختارين للقوانين الاشتراكية التى أوجدتهم فأصبح العامل مالكا – وهميا – للمصانع قبل أن يصبح ليش فاونسا شابا يافعا . ويقال أن بعض الباشوات كانوا يحبون مصر وإن معظم العمداء لم تواتهم الفرصة لذلك ، وقد كان لهم العذر حين حولوا ما بقصور الباشوات من تحف ونفائس إلى بيوتهم . قيل إن الاخلاص أهم من الكفاءة وقال رأسمالى عجوز لم يغادر مصر أن الاخلاص سوف يتسبب فى دمار المصانع وهلاك آلاتها وامتلائها بالعمال والموظفين الذين سوف يتقاضون الرواتب دون أن يعملوا شيئاً وأن نصف أعضاء مجالس إدارات الشركات سوف يفكون الخط بصعوبة ولكنهم سيبرعون فى مناقشة الميزانية قبل التصديق عليها لجهلهم التام بأبسط مبادىء الاقتصاد .

وحين انتهى ذلك التسلسل إلى جلوسى على مقعد مدير عام بإحدى هذه المؤسسات وجدت نفسى قد أصبحت الباشا والعميد والعامل والموظف

مجسدين جميعا فى كيان واحد بذراع رأسمالى وقدم اشتراكى وصدر دينى ومؤخرة شيوعية وعضو تناسلى فوضوى متمرد ، أما الرأس فملكى جمهورى ديموقراطى اشتراكى تعاونى ، فبالله كيف يستطيع رأس كهذا أن يعرف إن كانت قراراته عادلة أم ظالمة أمام ذئب يعوى قائلا :

– ظلمتنى بأن فضلت «معتز» على فى الترقية وأنت تعلم أننى أقدم منه وأكبر سنا وأعول أسرتين .

يعمل معتز فى صمت ولا يطلب لنفسه شيئاً ولا يشكو أحدا ولا يتحدث عن همومه إلا مع نفسه وبصوت يكاد يكون مسموعا فى خلوته . كلما رأيته تذكرت أبا الهول وأصابنى منه الانبهار والتوقير وانتابتنى لحظات من الشعور بالحكمة والتماس العبرة من التاريخ واليقين من فناء الدنيا عن قريب عاجل بمشيئة الله .

– الترقية إلى هذا المستوى تتم بالاختيار ، ومعتز أكفأ منك فى العمل وأنت تعرف ذلك.

يقول الليبراليون وكذا الاشتراكيون والانتهازيون أن تأميم الشركات أدى إلى انهيار اقتصاد البلاد . وما أن ظهر جورباتشوف حتى تمسكوا جميعا بالقطاع العام فلكل فيه مغنمه حيا أو ميتا . أنا نفسى أحد المستفيدين ، فبينما يدر على المكتب الاستشارى دخلا لا بأس به إلا أننى أصر على البقاء بهذه التكية أغترف من مائها العطن وأصب فى جوفى وأهش الذباب وأحيانا أقتل الصراصير . لا أعرف ماذا أفعل أو لماذا . أنا خائف على المنصب والمعاش المضمون وياقوت خائف على الدرجة والعمال خائفون من الجوع وفاروق خائف من الكساد مرددا عبارتيه الشهيرتين «السوق مضروب» ، و «الرشاوى تستهلك ثلاثة أرباع أرباحنا» والحكومة خائفة من مظاهرات العمال والوزراء خائفون من جرائد المعارضة ورئيس الوزراء خائف من ارتفاع سعر الدولار وتجار العملة خائفون من اختفائه والبنوك خائفة من رفع سعر الفائدة ووزير الاقتصاد والخزانة خائف من صدور حكم

ضـده ووزير الداخليـة خـائف على أمن الشـعب من المتطرفين والمتطرفـون يقتلون رئيس مجلس الشعب في وضح النهار وتجار المخدرات يتسللون إلى مـقـاعـد هذا المجلس ورجـال الدين خـائفـون على الشـبـاب من القنوات التليفزيونية المشتراة من القمر الصناعي ووزير الاعلام خائف على شعبه من التخلف عن العالم المتحضر وبعض المفكرين خائفون على عقل الشعب من الغزو الثقافي الصهيوني والبعض الآخر خائف على هذا العقل من الغزو البترولي وأنا صرت مدفوعا بالخوف من الحياة منذ أن اكتشفت فجأة أنه من المحتمل – بل وربما يكون من الضروري – أن يكون للإنسان في حياته أعداء . كل ما أفعله لأواري سوأة هذا الخوف هو أنني أُكثر من السفر إلى الخارج محتميا بغرف الفنادق ودورات مياهها المعطرة .

– بل إنك تكرهني وتحبه ، وعلى هذا الأساس كان اختيارك .

هكذا صورت له قدراته العقلية ونسيجه النفسي فراح يصيح متوعدا .

– لن أسكت على الظلم وسأعرف كيف أحصل على حقي .

والحقيقة أنني لم أشعر تجاهه يوما بالعداء رغم افتراضي أنه «عدو» فكيف أنزع من رأسه فكرة أنني ظالم ؟

تهمة بغيضة تتنافى مع تاريخي . لكن عندما اصطدم اعتقاده – في حق لا يستحقه – بهذا التاريخ ألغاه في لحظة ومحاه فتحول كل شيء في الدنيا أمـامـه إلى الدرجـة الأولى . يريد أن يرقى اليـهـا وليذهب العـالم كله إلى الجـحـيم وأولهم ذلك الظالم الذي هو أنا . أمـا دخـول تركـيـا في أراضي العراق وخروج العراق من أراضي الكويت ودخول أمريكا في أراضي الخليج بأجر مدفوع ، فتلك أمور تستوي عنده بدخول الشيء في الشيء ثم خروجه منه بعد أداء غرضه . الدرجة هي بدء الخليقة ونهايتها . الميلاد والموت . الدنيا والآخرة .

لو علم ياقوت كم آلمني بتلك الصفة وأوجعني بنطقها لظل يرددها على مسامعي حتى أموت فأعود إلى حالتي القديمة لا أفكر ولا أريد . لو يذكر كم

تعذبت ليلة أن وقعت عليه الجزاء لتمادى فى تعذيبى حتى الموت.

فى تلك الليلة كنت أجتاز طريقا مظلما فى حى شعبى حين لمحت بائعا جوالا على عربة يد متهالكة يبيع بواقى حبات العنب المتخلفة فى قيعان الأقفاص . كلها حبات منفرطة من عناقيدها وقد تجاوز معظمها حد النضج إلى الحموضة ولهذا يبيعها بسعر زهيد . لفت نظرى رجل يقف أمامه على استحياء خشية أن يلمحه أحد وهو يرتكب ما يراه جرما اجتماعيا شائنا يسىء إلى كرامته . كانت رقبته منحنية إلى الأمام بزاوية تكاد تتعامد على صدره . لف له البائع قرطاسا من جريدة وراح يغترف بيده الحبات «الفرط» ثم انهمكا فى مساومة حول السعر . كان صوت المشترى ذليلا مستكينا وصوت البائع غليظاً مستبدا .. أما المشترى فكان ياقوت .

هرولت مسرعاً حتى لا يرانى .. وفى الليل امتنع عنى النوم فأبناؤه ينتظرون عودته وقد ظل يعمل طول النهار ليعود إليهم بهذا القرطاس . قرارى كان عادلا بالقياس إلى ملابسات الواقعة التى بسببها عاقبته .. امتنع فى ذلك اليوم عن العمل بلا مبرر مفهوم . كل ما قاله زملاؤه أنه قرأ خبرا مثيرا فى احدى جرائد المعارضة فألقى بها على الأرض وطاح يضرب فى الموظفين صائحا .

– كلنا حشرات . كلكم منافقون . هذه ليست حياة . هل من رجل بينكم يدلنى لماذا نعيش ؟

ساد الهرج المكان وانطلقت صرخات النساء حتى فوجئوا به يخلع قميصه ويصيح مشيرا إلى فانلته الداخلية .

– أنظروا . موظف يخدم البلد حتى بلغ الخمسين وملابسه الداخلية ممزقة . كلكم جبناء .

هكذا أعطيت نفسى حق الحكم عليه باقتطاع أجر أيام ثلاثة من قوت أولاده حسبما اقتضت عدالتى . لست أعرف ماذا كان من الممكن أن يكون عقابه لو لم تضعه العدالة العليا تحت رئاستى ، وهل هناك عادل حقيقى

واحد على وجه الأرض ؟

فى الصباح ذهبت إلى المؤسسة مبكرا واللهفة تستبد بى أن أرى هذا الرجل. كلفته بعمل محدد وربت على كتفه ثلاث مرات ثم صرفت له مكافأة تعادل أجر خمسة أيام . لكنه يصر على أننى رجل ظالم . يصيح فى وجهى واثقا من حماية القوانين العمالية له مهما فعل .. وذلك أمر يستحيل حدوثه فى مكتبى الاستشارى غير الاشتراكى ، حيث أنا المالك الحاكم صاحب الأمر والنهى ومن لا يروق له ملكى وحكمى وعدلى وأوامرى فليشرب من البحر أو يترك العمل .

والحقيقة أننى كنت راضيا عن نفسى لاعجابى الخفى به ، فالأكذوبة الانسانية المسماة بالاشتراكية هى شىء رائع متى حققت العدالة بين ياقوت ومعتز وهى أكذوبة لأنها لم تحققها . كذلك الأكذوبة الأخرى المسماة بالليبرالية هى أكثر روعة متى ميزت معتز على ياقوت . ولأنها لن تتحقق فهى أيضا أكذوبة .

ولأن ياقوت قد اختار أن يكون كاذبا من خلال أولى الأكذوبتين ، فهو صادق لأن تكذيب الكذب صدق . بذلك أصبح كل منا صادقا مع نفسه ، فأنا عادل وظالم وهو ظالم وعادل . غير أنه ينسى فى غمرة حقده أن هناك قوة عظمى مانحة للرزق مانعة له كيفما تشاء .. والواقع أننى لم أستطع فى النهاية أن أفعل شيئاً سوى محاولة التسرية عنه بقولى :

– عموما لا تقلق فسوف تتخلى الدولة عن ملكيتها للقطاع العام .

قال مستعذبا عبوديته لرجائه .

– وما شأنى بذلك .. هل يعيد هذا إلى درجتى المسلوبة .

– سوف تلغى الدرجات عقب صدور قانون الشركات القابضة .

لكن محاولتى باءت بالفشل إذ تساءل رافضا حرية اليأس :

– إذا كان الأمر كذلك فلماذا قمتم بحركة الترقيات قبل صدرو القانون ؟

لأنك سىء الحظ ولا سبب غير ذلك . وأما الحظ فأنا مثلك لا أفهمه وإن

كنت أومن به . ألححت فى طلب النقل إلى إدارتى لعدم وجود درجة أولى بالإدارة التى كنت تعمل بها . وما أن نقلت حتى أنشأوا درجة أولى بهذه الادارة ورقوا إليها زميلا أحدث منك . اختيارك للزمان والمكان دائم النحس .

قررت يومها السفر إلى العراق وحذرتك من سوء العاقبة المؤكد . عدت بلا دينار واحد فتضاعفت ديونك . ثروتك التى عدت بها كانت مجرد رواية تتندر بها - وقت صفائك - عن ذلك المذيع العراقى الحديث العهد بالعمل والذى توجه إلى حمال بمحطة السكك الحديدية يسأله بعض الأسئلة . نهره الرجل وتهرب منه لانشغاله بعمله . أصر المذيع على إغرائه بأن الحديث مذاع على الهواء وسيسمعه أولاده وزوجته بالبيت فاستجاب الرجل . قال له المذيع :

- أحك لنا عن يومك منذ الصباح حتى نهاية العمل .

- فى الصباح تحضر لى «خدامتك أم السيد» فطيرتين أكل واحدة وآخذ الأخرى معى إلى المحطة .

- وهل تكفيك الفطيرة الثانية حتى نهاية اليوم ؟

- الحمد لله وعاش لنا الفارس صدام حسين حفظه الله .

- وفى المساء ماذا تفعل عندما تعود إلى بيتك ؟

- أتناول العشاء بسرعة ثم أضاجع خدامتك أم السيد مرتين وأنام على الفور .

كاد المذيع أن ينهار خوفا على مستقبله وراح يصرخ محذرا الحمال أن الحوار مذاع على الهواء . غير أن هذا الأمر لم يحظ عند الحمال بنفس الأهمية ، بل إنه اعتقد أن المذيع يريد المزيد من الايضاح فأفاض له عن أهمية المضاجعتين الليليتين لصحة بدنه ، وقد أصاب المذيع ارتباك وفزع وفصل فى اليوم التالى من الاذاعة بعد انتشار رواية خدامتك أم السيد فى أرجاء البلاد .

أنفقت من عمرك عاما لتعود إلينا بحكاية خدامتك أم السيد ولكن ما ذنبك فى ذلك ؟ . ألم أقل أنه سوء الحظ . أنت تدفع ثمن فروسية «أبو السيد» حفظه الله وأمثاله ثم تثور . معتز يدفع مثلك تماما ثم يتحول إلى زمن تجسد فى تمثال . أنا أيضا أدفع ولكن .. احمد الله يا ياقوت على أنك لم تعد فى تابوت من توابيت اتفاقية التعاون الرباعى التى أهيل عليها البترول ثم اشتعلت نيرانه فى صدرك بعود ثقاب رأسه أمريكى وساقه عربى . عدت فى حالة من الغم والتمزق يرثى لها . تريد النيل منى عن بعد دون أن أراك أو أشعر بك فتلجأ إلى الهاتف . تخشى مواجهتى خشيتك من مواجهة ليلة العنب «الفرط» . تدفعك المصادفة إلى طريقى ليلة المكالمة الأولى بالتحديد . تمشى على الرصيف فى ذات المساء مهموما منكوشا متهدلا كئيبا . ما أن رأيتك حتى ظننت بك السوء كله . ولم لا أظن السوء بمن أحسنت إليهم فأساءوا إلى . وكيف أخجل من أن أذكر نفسى ببعض حسناتى التى أغفلتها أوراق مكالمة العدو . أنا الرجل الذى لا يلجأ العمال لغيره حين تعتصرهم الأزمات . أنا الذى شاركهم الأفراح والأتراح وحفظت أسماء أبنائهم وبناتهم وعرفت من تخرج منهم فى الجامعة ومن توسطت له من خلال معارفى للحصول على عمل هنا أو هناك . غرف المستشفيات تشهد على زياراتى لمرضاهم وعلى المظاريف المغلقة التى تسلمتها زوجاتهم فى السر . باب بيتى لم يكف عليه الطرق بلا موعد لكل من أراد العون فى أى صورة من صوره . كيف أغفلت الأوراق ابتسامات الزملاء والرؤساء والمرؤسين حين يلقوننى . كيف أغفلت حرارة الأحضان والقبلات النابعة من قلوب محبة . ؟؟

أيتها الأوراق الظالمة كيف تتجاهلين حسناتى حتى فى سيئاتى ؟ . ألم تنتشل قبلاتى نيفين وفوزية من الانهيار . ألم أرفض خيانة رجل لست أعرفه حين دعتنى زوجته إلى الفراش .. ورغم غيرة فؤاد طبلية وحقده ، ألم أقدم له مفتاح الحل السحرى للغز حياته المشتتة . وكم حزنت على بهلول وأشفقت

على أسعد ندا ورثيت ليوسف وترحمت على حازم شفيق . لماذا لم تحو هذه المشاعر أوراقك الماثلة أمامك على كف عفريت . لماذا لم تكشف سر تحولك عن أمنية عندما عرفت أنها تستغل اسماعيل ؟

فى التماسك الأعذار للجميع ذريعة واحدة تكفى لتفنيذ العداء وتبديد وهمه .. ولكن كيف يكون الحكم على ياقوت ؟ ..

سوف أحتكم إلى قرون استشعارى فقط للكشف عن وساخته المكتوبة على جبينه الضيق .

فى الصباح توجهت إلى مكاتب الموظفين أحييهم كالمعتاد . كان ظهرى فى مواجهة ياقوت عن عمد . ثم التفت فجأة لأصب نظراتى فى بؤبؤ عينيه دفعة واحدة قبل أن أستقر على قرار . كان اعتقادى أن مواجهة العيون سوف تحسم لى الموقف وتحل اللغز وأن فراستى أبدا لن تخيب . ظننت أن نظراته الزائغة القلقة المذنبة سوف تفضح سره أمام نظراتى القوية الثاقبة المستفزة . لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، فأنا الذى ارتبكت أمام نظراته اليائسة المهزومة . تضاعف شكى فى صدق حدسى وخشيت أن أظلمه بحق ، ووجدت نفسى ضعيفا أمام عينيه المنكسرتين وهما تصبان سيلا مخيفا من الاشعاع الحزين . قلت له مداعبا .

– لقد ألغيت الحدود بين مصر وليبيا . ألا تجرب حظك مرة أخرى ؟

آه من الضجر .. والعقل المصلوب .. والشفاه المحترقة .

ـ ٥ ـ

لم أدع فرصة نديم تفلت من يدى . ألححت عليه بأسئلتى فى اصرار أثار دهشته حتى أقرّ أمامى واعترف .

كان جالسا بموقع عمله فى نقطة مرور نائية بطريق زراعى فرعى غير مطروق . ينهمر المطر بغزارة شديدة تكثف شعوره بالاغتراب والوحدة فتصطك أسنانه بعنف وتراوده رغبة غامضة فى الموت . تتساقط عليه قطرات المياه المتسربة من الفتحات الخشبية للبناء المتآكل الذى يحتمى به . يغير من موقع جلوسه وهو منكمش على نفسه ملتف ببطانيتين سميكتين فوق المعطف الأميرى العجوز . تراءت له وجوه التماثيل التى يصنعها بحب من الطين ويرفض فى بعض الأحيان بيعها لمن يشعر بفراسته أنه لا يدرك قيمتها الفنية . فكر فى راتبه الزهيد الذى يتقاضاه لقاء هذه الوحشة المميتة التى لا يبددها الا مرور عربة مسرعة بين الحين والآخر . يتذكر ابنه الأكبر الذى تجاوزه طولا وعرضا ولم يرث منه إلا فحولته الطاغية ونزواته الحيوانية . استعرض كم من المرات أنفق على أسرته من أموال عشيقاته الثريات . منح وهدايا ومكافآت تقديرية باهظة امتنانا لعطائه وعرفانا بذكورته الكريمة . تمنى بعمره أن يأتنس فى تلك اللحظات الجليدية الكئيبة بأى مخلوق له روح ينشله من وحدته ويشاركه عزلته ويعيد إلى دمه المتجمد حرارة الحياة .

أفاق من شروده الحزين على صوت باب عربة يغلق بالقرب من موقعه . حسناء على مشارف خريف العمر وعربة فارهة ورياح تعوى وظلام أسود

كئيب وصمت بارد موحش ، والساعة تقترب من الثالثة صباحا . فوجىء بقائدة العربة تجرى نحوه بسرعة وقد غرقت ملابسها فى سيل المطر المتدفق فى جموح غير مسبوق . ما أن وصلت إلى باب الموقع حتى ألقت بنفسها إلى داخله مندفعة فى بكاء هستيرى مثير .

لم أعد أذكر تفاصيل القصة التى قادتها إلى هذا المكان الموحش وفى ذلك التوقيت الغريب . كل ما أذكره من رواية نديم أن ذلك البناء الخشبى المتآكل قد شهد فى تلك الليلة العاصفة تلاحما جسديا حميما قادرا على قهر الموت بين رجل وامرأة جمعت بينهما مصادفة لا معنى لها مهما بدت فى حقيقتها أقوى من الخيال .

قال لى أنه اندفع بعد ذلك - رغم شدة البرد - إلى ترعة قريبة من الموقع ليتطهر .. ناوشت مسامعه أصداء مكبر صوتى يأتى من قرية بعيدة . كان أذان الفجر . انهمر فى بكاء تشنجى غزير لم يدر سببا لمقدماته التى امتزجت بنتائجه . ورغم جمال المرأة الفادح وعطائها السخى كحلم لا يتكرر فإنه ما أن عاد إلى موقعه حتى انهال عليها ضربا بكل ما تبقى له من قوة ثم حملها بين ذراعيه عنوة وجرى بها إلى العربة فألقاها فيها .

استوقف أول عربة عابرة ليتولى صاحبها أمرها وأخفى نفسه بالموقع وبات يرتجف بشدة حتى سكتت العاصفة وأشرقت الشمس . سألته وقد تخدر جسدى تماما :

- وماذا بعد ؟

قال بصفاء عجيب .

- كانت هى اللحظة .

بعد صمت كثيف قلت لنفسى فيه كل ما يمكن أن يقال وما لا يمكن ، سألته :

- ألم تفكر بعد ذلك أبدا فى ...

قاطعنى بهدوء واثق .

– لم ولن والحمد لله .

ابتلعت غيرتي وظللت على صفريتي أتفنن في الجمع بين الأضداد والتأرجح عليها والالتفاف من حولها في حيرة تمتزج بالسعادة . أتألم لذنوب ارتكبتها أقل مما أتألم لذنوب لم أرتكبها . وما هو التعريف الدقيق للذنب حتى أستطيع أن أحدد إلى أي فئة من عباد الله الصالحين الطالحين أنتمي . ولأنني لم أداوم على الاستغفار كل ليلة كما سبق أن عاهدت نفسي ، ولأن نديم لم يبذل جهدا للحصول على المنحة الالهية التي أشتهيها بروحي ، فإنني حملت ظنوني على ظهري متجها إلى وداد .

– أحبك . أنا مجنونة بك .. أرجوك .

في القلب سحر الشرق وحنانه ، وفي العقل جرأته وديناميكيته وتحرزه .. أما جسدها ففتنة العالم كله وعبقريته . إليها يا رجل ولا تتراجع . أمسك بقلب الدنيا في يدك وضع يدها على قلبك وادخل محفوفا بالفرحة مترعا بالنشوة إلى ملكوت السحر فأنت مليكه المتوج بلا منازع .

إليها يحملك ملاك الحب على جناحيه ولتقر عيناك بجمال الكون وجلاله ورهبته ... وإلا فلتعد إلى موتك الساكن ولا تفكر لحظة في جدوى الحياة . إليها . وإن لم تنجح فإنك فاشل حتى الموت .

قانون الطبيعة ذو سطوة وبأس تنسحق أمامه كل القوانين .. رغم ذلك فجنونك يقيس العمر بحيوية القلب ، وازدواجك الارادي المقنن يفقدك بهجة الحياة ويعوق انسيابها الطبيعي في شرايين دمك . مرغم أنا في زماني ومكاني على الحياة بكيانات ثلاثة ، أحدهم حقيقي مع نفسي ومن أحب والثاني مصطنع مع كل ما يتبقى في الحياة من بشر وأشياء ، أما الثالث فهو الذي يحدد لي متى أستخدم هذا أو ذاك .. وإليها لأغوص في دنيا الجمال تصحبني اللعنة مشدودا إلى عالمها الغامض المسحور ..

ما أروع عشقي لعينيها وهما زرقاوان في لون البحر ، ولجلدها وهو في سمرة طمي النيل وخصوبته .

انطلقت بعربتها فى محاذاة الشاطىء والمطر يغمر المدينة بالحاح لا يهدأ . كان البحر رغم ذلك هادئا يستقبل رخات المطر بين أحضانه بحنان شديد . وبدت الاسكندرية حسناء مغتسلة ليلة عرسها تضج بالفتنة والبهاء وتشع بنضارة الشباب . وقال لى محمود كامل أنه يهيم عشقا بالحياة وأنه لا حيلة له فى مقاومة هذا العشق ولا رغبة .

تصــر وداد رغم زلاقة الطريق وخطورتها على قيادة العربة بيسراها فقط ، حتى تمسك بيمناها يدى تارة وتقبلها تارة أخرى . كلما نبهتها لرعونتها قالت لى «لا تخف» وتمادت فى قبلاتها الخاطفة واستسلمت لتماديها طاويا حذرى بين أعطاف نشوتى الطاغية مخفيا خوفى تحت أعماق سعادتى الجارفة الطازجة . تصطدم بأذنى طرقعات لبان تمضغه بطفولة خلابة وأنوثة متفجرة ، وأكتم ضحكة نابعة من القلب فتكرر الطرقعة مرات ومرات حتى أضج بالضحك وأسألها .

- متى تعقلين ؟

فتجيب ببساطة طبيعية .

- ما أفعله لا يتناقض مع العقل . أنا سعيدة بك . دعنى أعبر عن سعادتى كيفما شئت .

قلت لنفسى إن هذه السيدة الطائشة الرائعة سوف تجهز حتما على البقية الباقية من عقلى لو طال زمن علاقتى بها . تساءلت وأنا أحسدها على شدة انطلاقها لماذا لا تكون الحياة بهذه التلقائية . تذكرت أنها زوجة لأستاذ جامعى مرموق وأم لطفل جميل ، وأن هناك أعرافا دينية وانسانية واجتماعية تنتهك فى استخفاف غريب ، وأنها تقود سيارة فى طريق زلقة وتقول لى :

- أحب يدك جدا .

وأقول لها ساخرا .

- أنظرى أمامك أولا ثم تحدثى بعد ذلك عن يدى كما تشائين .

تتجاهل سخريتي فتقبل يدى من جديد وأدير وجهها برفق إلى الأمام حتى لا ينتهى اللقاء بكارثة .

– أحبها حين تلمسنى وحين تعزف على الكمان ، أحب كل خط مرسوم عليها وكل عرق يبرز تحت جلدها .

فاقت غبطتى كل الحدود وقد استبدت بنفسى عقدة لا أريد ذكرها فاندفعت من قلبى الكلمات بلا عائق .

– وأنا أعشق جنونك الملهم .

تساءلت بفرحة صبيانية مفاجئة وقد تركت عجلة القيادة من يدها تماما .

– صحيح ؟

– صحيح .

– لا أكاد أصدق أنك تتخلى لحظة عن صرامة عقلك الذى يحيلك أحيانا إلى عجوز فى الثمانين .

خفت حدة المطر وقال نديم «لم ولن والحمد لله» . توقفت العربة أمام المكان الذى رفضت أن تحدثنى عنه منذ بداية اللقاء . سألتها فى دهشة .

– ما هذا البيت ؟

– منزلى .

– هل جننت ؟

– إنزل مطمئنا ولا تناقشنى الآن .

– مستحيل

– ألا تقبل دعوتى لفنجان من القهوة ؟

– أقبلها فى أى مكان إلا هذا .

– أرى الفضيلة وقد هبطت عليك فجأة .. إنزل يا مولانا .

استفزتنى ثقتها الشديدة بحتمية انصياعى لرغبتها إذ تبين لى أنها قد اتخذت قرارا مسبقا باستدراجى إلى شقتها فى غياب زوجها . قلت لنيفين «إنا لله وإنا إليه راجعون» . قالت أم بطرس «إنه صغير والتعرية عليه حلال».

وقالت تغريد «أحيانا أخاف منك وأحيانا أراك طفلاً . أما ياقوت فقال إننى رجل ظالم وإن البقية حشرات ومنافقين .

يهتم زوجها كثيرا بصحراء النفط . يحب كثبان الرمال والحر اللافح والدولارات والدينارات . أرادت أن تختصر ما تبقى من وقت محدود قبل عودته المرتقبة بعد أن ملت تبريراتى وتعليلاتى للانفلات من لحظة مواجهتها جسدا لجسد فى غرفة مغلقة .

وداد هى المرأة الوحيدة التى خفت منها فى حياتى رغم شدة اشتهائها لى واشتهائى لها . سمعت أعضائى وأعضاءها تشهد جميعا على جرمنا يوم الحساب . أما هى فقد سمعت بفطرتها ما أسمع فبادرت باقتيادى إليها وخططت ونفذت بنجاح كاد أن يتحقق لولا أن رفضت النزول من العربة .

أصرف نفسى وتعود . أقرأ آية الكرسى والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة فتنصرف وألتقى بوداد فتعاود الحضور وتلازمنى وألبسها وتلبسنى .. ومازلت متعجبا لم لا يتحد الطين والنور والنار بداخلى فتتحقق المعجزة وأعرف عدوى فأمزق أوراقى وتنتهى القصة . ها هى الطاقة الكامنة تنفجر إلى طاقة حركية فأعود أفكر وأريد ويصحبنى القلق أينما رحت وجئت ويؤرقنى الخوف من المستقبل والندم على الماضى .

نعود من نفس الطريق وقد توقف انهمار المطر وتسللت فى الأفق فلول مشتتة من أشعة الشمس الواهنة حين مالت بقرصها القرمزى إلى الغروب . كانت وداد غاضبة لفشل خطتها المحكمة وكنت غاضبا لاستهانتها بذكائى حتى لتحثنى على اقتحام بيتها فى جرأة اقشعر لها بدنى . إنزل . إنزل . إنزل . أفزعتنى الكلمة . أثارت بنفسى حنينا جارفا متساميا إلى الصعود .

بقيت معلقا فى صفريتى بين تحت وفوق فالتزمنا الصمت طويلا . أمى تحترم ذكائى وكذلك تفعل تغريد . لكل منهما حصة فى قلبى . علمانى الحب فكانت الخيانة هى ردى للجميل .

كانت العربة تجتاز طريقا زراعيا تحف به الخضرة من الجانبين ويكاد يخلو من العربات والمارة . فوجئت بها تترك عجلة القيادة وتلطم بعنف على خديها المتوردين وتصيح .

– أحبك . أريدك .

ثم تنهمك في بكاء حار .

لم أعرف ماذا أفعل وماذا أقول . كل ما كان منى أن ربت على ظهرها بحنان أبوى دون أن أتكلم .

– لماذا ؟

– أنا أيضا أريدك .. لكننى لا أستطيع .

– لماذا تأتى إلى عندى وتقول لى أستطيع وقد استطعت مع غيرى من قبل ؟ ..

عرفتها في حفل اجتماعي بالنادى. قالت انها شاهدت صورتى فى الجريدة وسألتنى عن مضمون مسرحيتى التى نشر عنها الخبر. تعجبت كيف أجمع بين الهندسة والمسرح فقلت لها ان الحياة كلها هندسة مسرحية. سألتها عن زوجها فقالت إنه بالخارج. معظم سيدات النادى أزواجهن بالخارج. أحيانا لا أصدقهن. سألتها عن ابنها فقالت إنه عند جدته. عن حياتها فقالت ضاحكة إنها لا تختلف كثيرا عن الموت. رغم ذلك لم تشف معالم وجهها عن لمحة حزن. دعوتها إلى فنجان من القهوة وتحدثنا طويلا كطفلين منبهرين بصداقة جديدة. تكلمت كثيراً عن شعورها بالغربة فى أوروبا مع بداية حياتها الزوجية، ثم فى صحراء النفط، وأخيراً فى مصر. استمعت إليها باهتمام وشغف.. وعند الوداع قالت لى إننى رجل مختلف عن الآخرين وأطلعتنى على مواعيد تواجدها بالنادى.

– وكيف عرفت؟

– استحضرت تاريخك بأكمله وأحطت علما بتفصيلات ماضيك الدقيقة. أوقفت العربة. أمسكت بيدها فى رقة وكنت مرتبكا حين قلت لها.

- انزلى نتكلم قليلا بجوار العربة.

اتجهنا بالعربة إلى ممر جانبى ضيق على يمين الطريق. كان حوارنا المتلاحم تجسيداً حقيقياً لمأساة لم تقع .. تكره زوجها الوسيم البخيل. يلعق جسدها كحيوان مسعور يتلذذ بنهش فريسته بعد أن ينشب فيها مخالبه فتعجز عن الفرار وتسلم روحها.. أحب تغريد فهى لا تعرف إلا العطاء ولا تطلب إلا الحب.. جاءت سيرتها عفوا فاكفهر وجهه وداد..

- اذن لماذا تعرف غيرها من النساء؟

- لست أدرى..

- بل تدرى وتكابر. إن عطاءها عاجز عن اشباعك.

قلت بفتور شديد.

- يجوز

- أستحلفك بكل غال لديك أن تعود معى إلى بيتى. ولتكن المرة الأولى والأخيرة. لن أرغمك حتى على قبلة.

رأيت الرجاء يغمر عينيها ويطل من خطوط وجهها وينسكب من شفتيها، وما الرجاء إلا عبد رقيق، فكيف لا أذوب حياء أمام عبوديتها ورقتها ومن منا الذكر ومن الأنثى؟.. من أكون حتى أسمح لنفسى أن أرى أمامى إنسانا يتوسل إلى فى تذلل وتضرع.. لا عربة ولا رفات ولا جريدة معارضة ولا توحُد فى الألم على الفقيدين الحقيقى والوهمى. الأمر هذه المرة مختلف تماما لكنه لا يقل جدارة عن سابقه بالتماس العذر ووجوب التعاطف الإنسانى، وفى ذلك الصباح البعيد ربت على ظهر ياقوت خليل ثلاث مرات، وهذه المرأة لا تعرف عن تاريخك الحقيقى كما تتوهم. إنها لا تدرى كم ألمتك تلك الزاوية المهينة التى انحنت بها رقبته أمام بياع العنب.

لو ذهبت معها الآن لأفعل بها ما تريد - وما أريد - لكان هذا انتصارا من جانبى على تذللها الذى أرفضه. وانتشالا لكرامتها من الحضيض الذى تهاوت إليه، ولكن..

- يا وداد.. أقسم لك أنه لو كان باستطاعة ركبتى أن تحملان جسدى لأصعد به إلى شقة رجل مسافر وأشاطر زوجته الفراش لما ترددت. صدقينى قد أموت على السلم. قالت بعينى نمرة جريحة.

- هه.. الحكاية كلها انك إنسان جبان

- الله يسامحك

- لا تتحدث عن الله فأنت لا تقل عنى سفالة. أنت لا تخافه وإنما تخاف زوجتك.

وانهارت باكية مرة أخرى. عاودت التربيت على كتفها حين مرت عربة مسرعة يقودها شاب بصحبته مجموعة من الفتيان والفتيات. راحوا يمطروننا بالصفير والصريخ فى مرح عابث. صاح أحدهم قائلا.

- لابد أنهما يمثلان فيلما سينمائيا.

قالها فى اللحظة التى ألقت برأسها على صدرى وأنا مستند إلى العربة. ثم اندفعت تقبلنى على جبينى وكتفى ورقبتى، ثم هبطت بجسدها المشوق فجأ لتقبل قدمى التى سحبتها برعشة عاجلة إلى الوراء.

توقفت عربة الشباب لحظة وقد بدا عليهم التأثر الصادق، لكنهم انفجروا بعد لحظة من الصمت فى ضحك صاخب ثم انطلقوا بعربتهم فى سرعة زائدة ملوحين لنا بأيديهم فى بهجة وانطلاق.

عدنا إلى العربة وقد اتكأت على عجلة القيادة محدثة نفسها بصوت طفل أسمعه بوضوح:

- أنا أعرف أن الله ينتقم منى بك. لقد أذللت رجالا كثيرين وتسليت بهم دون أن أدع أحدهم يحلم حتى بمصافحتى.

ابتسمت فى خبث معتقدا أننى أصدمها بالمفاجأة قائلا

- وآخرهم حشمت الهوارى

لم يبد عليها أى انفعال. فقط أومات برأسها فى حزن.

- فعلا. لقد بكى أمامى أكثر من بكائى أمامك وتوسل أكثر مما توسلت. أما أنا فكرهته. وأرجوك ألا تكرهنى.

سقط أبو رجب فى نظرى وهو يبكى لزوجته أمام أمى. كنت أشعر من قبل برهبة تجاه شاربه الكث الطويل.. وتعاقب الغزاة على مصر - كما قلت - هو المسئول عن عملقة أم رجب وضآلة حشمت الهوارى الذى حوله اعتياد القهر إلى جبان يسبنى لزوجتى عبر الهاتف. أين أنت يا ساقى الحبيبة.. يا حديقة للفل رويت من حليب؟.. هل أصبحت الآن مكونا عنصريا من مكونات البترول الأسود القبيح التى يحترمها أساتذة الجامعات وعلى رأسهم زوج وداد؟ أيكون هذا مصير نشوتى الخضراء التى عرفتها يداى حين لامستك منذ ثمانى وثلاثين عاما. وهل تعرف يادكتور ماذا كانت زوجتك تنوى أن تفعل منذ قليل. وهل تعود إلى بيتك لو عرفت؟.. سوف يضعك حشمت موضع الاختبار فماذا أنت فاعل؟.. إنه يترقب زوجتك ويتبعها كالظل أينما ذهبت. لعلك تذكر ذلك الصيدلانى - جارك - الذى حاول التودد إليك بشتى السبل حتى يحظى بمجرد رؤيتها. لعلك لم تلحظ أنها عاملته بغلظة واحتقار. حتى لو عاملته برقة واعجاب فما كنت لتدرى أيها الوقور المنشغل بالهرولة فى المطارات.

كاد حشمت أن يقع مغشيا عليه يوم رآنا نضحك من قلبينا فى النادى. وقف متجمدا فى مكانه. بعد برهة تجرأ - رغم اهتزازه الواضح- فاقترب من المائدة وسألها بينما ينظر إلى فى كراهية.

- من هذا يا «مدام»؟

أجابته فى هدوء وهى تنظر فى مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبتها

- ليس هذا من شأنك.

- لكنى أظن أنه من شأن زوجك الدكتور

وضعت المرآة بلا مبالاة فى الحقيبة وقالت وهى تغلقها باتقان

- اذهب وقل له ما تشاء

من عينيه سالت صبابته. ولهان أذله سلطان العشق. تنطق أساريره بالحقد على ذلك الكائن الذى تضاحكه المحبوبة. يتمنى لو حل محلى ولو

فارقته الروح. قلت له بهدوء مفتعل.
- لاحظ أننا فى مكان عام يعرفنى معظم مرتاديه. اجلس معنا نتفاهم بهدوء.
- أنا لا أعرفك. ليس بيننا تفاهم. الكلام سيكون مع الدكتور.
- إفعل ما تراه مناسبا ولكن لا تسبب لها فضيحة لو كان أمرها يهمك
كطفلة عابثة قالت لى وهى تضحك بعد انصرافه المخجل إنه هجر زوجته وأولاده لأجلها. عرض عليها أن يبذل الغالى والرخيص ليتزوجها بعد أن يطلق زوجته وتطلق هى من زوجها الدائم الغياب.. ثم أضافت بعد لحظات من الصمت.
- إنه مجنون
لو كان حشمت هو «العدو» فلماذا سكت من قبل ثم اختار هذا التوقيت بعينه لمهاجمة جحرى الآمن؟..
لقد مضى أكثر من عام على انتهاء علاقتى بوداد، فما الذى جد فى الأمر. كانت حتى عهد قريب تخاطبنى عبر الهاتف على فترات متباعدة. تسأل عن صحتي وتدعو لى بالسعادة وتقول انها لم تعرف رجلا مثلى وانها لن تنساني إلى الأبد.
لم يستبد بها اليأس منى إلا بعد أن شكت حالها لصديقة مشتركة بيننا، حين حسمت لها الصديقة الأمر بقولها:
- لا تضيعى وقتك بلا طائل مع رجل يحب زوجته
- وما الذى يجعلك واثقة من حبه لها؟
- أنا أعرفه من قبلك، كما أعرف زوجته، وأعرف قصة حبهما كاملة
- حدثينى عنها. أنا لا أطيق سماع اسمها منه. هل هى جميلة كما يقولون. هل تحبه كما يحبها ؟
ألم تحب أحدا قبله. كيف عرفته وكيف عرفها.. لماذا.. أين.. متى..؟..
أكذوبتا النسيان والتذكر لا تختلفان فى شئ، فهأنا أعتصر ذاكرتى كى

أتوصل إلى مشروع عداء سابق بينى وبين مجهول ولا أستطيع، بينما توشوش الذاكرة نمنمات الدانتيل الرقيقة المنقوشة على صدر قميص أم بطرس الوردى بتفاصيلها الدقيقة وتسمع أذناى بحة ناى حزين وتقول لى وداد ان حياتها قد تغيرت بفضلى إلى الأفضل فأشعر بسعادة بداخلها غرور وفى النهاية أحمد الله على نجاتنا معا من كارثة كانت كفيلة بأن تأتى على الأخضر واليابس. آه كم أنا جبان بالقياس إلى إقدام محمود كامل وجرأته وقسوة قلبه الرقيق.

ما الذى يدفع حشمت الهوارى إلى التحرش بحياتى بعد مضى أكثر من عام على اختطافى لامرأة لا تحق لى أو له وما حكم الناس على اللص حين يسرق لصا علما بأن معظم هؤلاء الناس لصوص؟ عندما يقع المحظور ينقلبون جميعا إلى أفاضل. يغضون أبصارهم فى استنكار ويلوون ألسنتهم بالقدح فى الفريسة بوقار كريه وسادية لا نظير لها.

بعد المواجهة بعدة أشهر رأيته مصادفة. تغيرت نظراته وتبدلت معالم وجهه وانحدر مظهره فبدا كورقة شجرة يابسة. كان تعسا بحق. خيل إلى أنه يحدث نفسه فى الطريق . اتصلت بها أسالها عما جرى له فقالت إنه بدأ يتصرف بوقاحة وجبن وشذوذ. طاردها بهيستيرية مزعجة. اضطرت إلى الشرطة فوضعته فى مكانة لا يحسد عليها إذ تعرض للضرب من الحلاق والبقال والجزار ومخبر الشرطة وجاءت زوجته باكية تستعطفها وتطلب منها التنازل عن حقها لأجل أبنائه. فى تلك الأيام توجست منه خوفا لكنه لم يتصل بى، بل كان يتحاشى لقائى فى أى مكان يتصور أننى قد أتواجد به.. واستمر الحال على ذلك حتى نسيته تماما، وبرغم كل ما حدث فلم أكن أشعر نحوه إلا بالرثاء والشفقة، أما العداء فلا.

- بهاء؟ غير معقول. أوحشتنى. ما الذى ذكرك بى؟

شهاب هوى محترقا إلى العدم.....

- أين زوجك؟

- جدد إعارته وسافر من جديد

عش عصفور أطاح به الهواء.....

- وما معنى كل هذا العذاب؟

- مرة يقول إنه يكون نفسه ومرة تحسبا للأقدار ومرة لتأمين الأولاد.

الرحمة يا تنهدات الفجر.....

- ولماذا لم تسافرى معه كما وعدتنى من قبل؟

- سافرت شهرين ولم أطق المعيشة الخانقة هناك فأصبت بانهيار عصبى.

الملك..... الملكوت.....

- وما أخبار حشمت الهوارى؟

- ألا تعلم أنه مات منذ شهر؟

أهلا ياربيب الأرامل والمطلقات والعوانس وزوجات المرضى والغائبين... ولسوف تظل أذناك تطرب لسماع نقيق أناث الضفادع ويخاف قلبك من نسمة الخريف الشجية ومتى تعود يا صديق عمرى ومعك كاترين؟... وليسقط الخونة.

- ٦ -

مازلت أذكر الإنذار بنصه الحرفي:

– لو تماديت فى غيك بعد هذا العمر فلتنتظر عقابا شديدا

شاب لا أعرفه. التقيت به منذ أعوام قلائل في الترام. تحدثنا لدقائق فى الطريق حديثا دنيويا عابرا كان وليد اللحظة. عند نزولى فوجئت به يتعقبنى. لم يتركنى إلا مع مطلع الفجر على مقعد فى مواجهة البحر. أخبرنى عن أشياء كثيرة حدثت لى فهل قرأ أوراقى التى تساقطت أمامى لحظة رنين جرس الهاتف وهو طينى مثلى وإن كان بوجهه نور ساطع؟.. نبهنى إلى أن العناية الالهية قد أنقذتنى من مصائب عديدة لأن «الله يحبنى حبا شديدا».. وعندما نظرت إلى عينيه متسائلا عما أسمع وجدته يبتسم لى فى مودة نادرة. أحببت الاستماع إليه ولكنى لم أصدقه. خفت منه عندما قال اننى قد تجاوزت سن النبوة وإنه قد آن أوان تعقلى ولجوئى إلى الخالق واليأس مما بأيدى الخلائق. يريدنى أن أكون كائنا آخر غير بهاء كامل فمن هو وكيف يكون ذلك؟ ازداد خوفى منه حين قال لى بنبرة محذرة واثقة.

– لوتماديت فى غيك....

أعطانى رقم هاتفة وانصرف. لم أجرؤ على الاتصال به الآن فهل يعقل أن الله يحبنى حبا شديدا وأنا عبده العاصى المشاكس المتمرد الذى يعيش بعين فى الجنة وعين فى النار؟..

بعد لقائه ظللت لفترة طويلة أتوقع ظهوره أمامى فجأة ولكن كمخلوق من نار. صرت أتلفت يمينا ويسارا أينما كنت وحيدا. يجف ريقى ويسيل العرق

على ظهرى وترتعش ركبتى اليسرى أكثر من اليمنى وفى المساء أرى أننى فقدت حذائى وسط جمع من الناس. أظل أجرى حافيا أبحث عنه فى كل مكان دون جدوى. فتشت فى ألوان من الكتب عن تفسير لهذا الحلم المتكرر فلم أعثر على شئ. هناك خلل ما فى تكوينى العاطفى والنفسى.. لو عثرت عليه فسوف أعرف عدوى وتنتهى المأساة وأحظى بالمنحة التى حصل عليها نديم دون أن يتمناها أو حتى تخطر بباله. وقال محمود كامل اننى المخلوق الوحيد الذى يفهمه على هذه الأرض. كلما جلست وحيدا فى غرفة انسابت من أركانها إلى مسامعى همسات موسيقية خافتة، ترنيمات شرقية تفيض عذوبة تعيدنى إلى حلمى الملون حيث البخور المعطر والرائحة المسكرة ودائرة الحسان والأنغام التى تنبع من القلب وتصب فيه..

لم أسأل الشاب عن اسمه رغم حديث دام بيننا سبع ساعات. ألا يأتى اليوم ليرى ورطتى الكبرى وقد آن أوان تحقق الانذار. ألا يحضر ليدلنى على أول مخلوق أكتشف بعد مرور خمسة وأربعين عاما على مولدى أنه يكرهنى حتى الموت. قالوا لى يا «حبيب الكل» وقد كرهونى ومضوا إلى طريقهم ومضيت إلى طريقى دون أن أشعر بكراهيتهم. تساءلت هل أجهل أسباب الكراهية لنقص فى ذكائى أم أتجاهلها لكونى حالة؟! لماذا يكذبون علىّ؟ أنا حين لا أحب أحدا أبتعد عنه ملتمسا الأعذار له ولى وللظروف التى جمعت بيننا أو فرقت، ولكن لماذا يكره أحد نفسه فيحملها ما لا طاقة لها به. ومالى أؤنب نفسى على الخوف من شاب غامض غائب أخرج ما بصدرى فى ساعات وأنا الخائف من عدو مجهول ينتمى إلى آخر مرحلة من مراحل تطور الثدييات. ما معنى الشجاعة إن لم تتمثل فى مواجهة خصم محدد المعالم. انصرف. انصرفى. بحق جلال الله العلى العظيم انصرفوا جميعا ولو أخذتم أيامى موصولة ومفصولة، فلابد أن تهتف أم السيد مع الجماهير بحياة مصر والسودان، ومعهما الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى. المشكلة هى الربع تون الذى لا تعترف به موسيقا

الغرب.. ولئن كان هناك عرش لملكة العداء فى هذه الأرض ففؤاد طبليه هو مليكها المتوج الجالس على هذا العرش عن جدارة.

عيناه لا تبصران إلا ماللغير أما أنا فأحب الرقص وحدى عاريا والاستحمام فى البحر عاريا والقراءة عاريا والنوم عاريا رغم خوفى من الجن . لست أشك أن فى هذا خللا عاطفيا أو تورما نفسيا ولكنى متوافق معه تماما فقد رأيت عن قرب - بدافع الخلل والتورم - جثة قريب عزيزة فور وفاته فأصابنى الارتخاء زمنا طويلا ولم أعد إلى حالتى الطبيعية الا مصادفة وبغير أدنى مقدمات. أكلته النار وهو يحاول انقاذ زوجته.. وربما يكون ما أفعله هو عين العقل ويكون الخلل فى ذات التاريخ والورم فى ذاكرة الوجود والله أعلم.

عينا فؤاد طبليه كفيلتان باشعال نيران الحسد والغيرة لتحرق بلادا بأكلمها. ذكرتنى به الموسيقا فكيف غاب من قبل عن ذاكرتى وسقط اسمه من جداولى الموقرة التى أوليتها كل الاهتمام والعناية؟ قال لنا صبيحة تخرجنا فى الجامعة.

- لقد اخترت طريق المال. سأتزوج داليا

زميلتنا تشبه الحرباء. راجعناه فى تسرعه. قال فى حسم

- أهى انثى والسلام. أنا لا أبحث عن الجمال.

اعتقد بعضنا من ذوى النوايا الحسنة أنه يهرج كعادته، فهو قادر على اخفاء نواياه الحقيقية فى قالب من السخرية اللاذعة والنكتة المرحة بحيث لا يعرف أحد مقصده الحقيقى.

فى أحد المنتزهات لمحته يقترب منا وبصحبته داليا. تحولت معالم القبح فى وجهها إلى شئ مماثل لمعالم وجه فؤاد نفسه. كاد الوجهان أن يتطابقا فى الشبه تماما بوجه كل من ياقوت خليل وحشمت الهوارى. دعوتهما لتناول الشاى معنا فكل الأشياء متشابهة على وجه التقريب. وهناك عيون بشرية يفقد الناظر إليها إحساسه بالأمان والحرية. لم ترحب بهما تغريد من قلبها

فهى تتبع فطرتها ولا تحب التمثيل رغم أنها تتقنه فى بعض الأحيان. ولقد تزوج أبى من أمى بعد قصة حب جميلة ثم قال لى إنه يريد الزواج من كاترين التى رأيتها تسير بساقى أم أنور.

فى وقت قصير تبين لنا أن فواد لم يحصل على قرش واحد من ثروة أهل داليا الذين استهانوا بشخصه. لم يجد أحدهما حرجا فى أن يشكو إلينا من الآخر سوءاته رغم أنه كان اللقاء الأول لنا منذ خمسة وعشرين عاما أمضى معظمهم فى دولة بترولية. حين غادرها مضطرا حمل معه منقولاته كافة ولكنه نسى أشياء قليلة تافهة من بينها ماء وجهه. هكذا صرح لى بنفسه وهو يصف كيف كان يرقص كالأراجوز لإضحاك أبناء الأمراء. لابد أنه التقى هناك بزوج وداد دون أن يدرى أحدهما بالآخر. تغلب استياء تغريد على دهشتها لما تسمع وبدت على وجهها إمارات التقزز. مخلوقات قرموطية لا يلزمها الحياء.

كنت شاردا فى مقارنة عجيبة بين وجه تغريد الجميل كضحكة الشمس ووجه داليا الذى ذكرنى بالمثل الشعبى القائل «يا أخذ القرد على ما له، يروح المال ويبقى القرد على حاله».. وليت فصول مأساة فؤاد قد انتهت بين مفردات هذا المثل العبقرى الصياغة. لكنه أراد بدافع من إثبات ذاته الممزقة أن يبحث لنفسه عن بديل للضياع الذى آلت إليه حياته فاتجه إلى دراسة الموسيقا- وهو يدرك تماما أنه محروم من الموهبة - وكأنما قدر له أن تقوده بصيرته دائما إلى طريق مسدود..

شرب فنجان الشاى حتى آخر ذرة من آخر قطرة فى قاعه، ثم شرب كوب المياه بصوت مقزز وأخذ يتأمل فى الفاتورة وقال ان النادل فى مثل هذه الأماكن يكسب أكثر من الوزير، ثم تحدث بمرارة عن ارتفاع ثمن «الخس» إذ بلغ ثمن الواحدة خمسة وعشرون قرشا وهى لا تكلف الفلاح أكثر من قرش واحد. بعد قليل أخرج من جيبه شريطا يحتوى على بعض الأقراص الطبية فابتلع منه اثنين ومسح شاربه المتهدل بكم قميصه. ثم فتح

حقيبته الصغيرة المهترئة وأخرج منها كتابين من تأليفه عن التذوق الموسيقى لاليهديهما إلينا -كما تصورت- ولكن لنطلع عليهما فقط، أملا أن يفكر أحدنا فى شرائهما من إحدى المكتبات.

تحدث عن تخلف الملحنين وجهل المثقفين المصريين بالموسيقا الكلاسيكية. احتفظ بعلبة ثقابه فى جيبه وراح يستخدم قداحتى لإشعال غليونه الرخيص كلما انطفأت جمرة التبغ به، ثم سألنى عن ثمنها مرتين. قالت له تغريد بمكر استفزازى لا يخلو من براءة وكأنها وضعت يدها بالفطرة على جرحه:

- اننى أفضل الاستماع إلى الموسيقا أو عزفها على دراستها نظريا.

قال مواريا حزنه الشديد وقد أصابه السهم فى مقتل.

- المستمع المثقف موسيقيا يتذوق الموسيقا أفضل من غيره.

تمادت تغريد فى كيدها العظيم.

- بالعكس. أنا استمتع جدا بعزف بهاء دون أن أفهم شيئاً عن فن الموسيقا أو تاريخها.

لم أتردد فى التضامن معها فقلت بهدؤ تام.

- هناك فرق شاسع بين الابداع والدراسة. المبدع هو الفنان، أما الدارس فإنه يعيش على نتاج الفنان .

دهمه صمت كالموت. طلب لنفسه فنجانا من القهوة. نظرت إليه داليا مستنكرة تصرفه فهما مدعوان على مائدتنا وهى تعلم ما يضمره. انبرت فجأة تهاجمه لأنه منذ العودة إلى مصر يضيع وقته فى هذه «التفاهات» التى لاتدر عائدا ماديا. اتهمها بابتزاز أمواله التى جمعها فى ربع قرن ثم أخرج شريط دواء آخر وابتلع منه قرصا. سألته تغريد عن مرضه فأجاب بمرارة وهو ينظر إلى داليا نظرة اتهام صريح.

- الكلى والضغط وبدايات السكر

قالت داليا وكأنها تتحدث عن شخص غائب

- كان يوفر ثمن زجاجة المياه المعدنية

كاد يقفز على المائدة ليطبق بأصابعه على رقبتها وكأنه يريد أن يقول

- ألست أنت التى كنت تطلبين منى ذلك؟

وبمحبة حقيقية - فأنا لا أشعر تجاهه أبدا بالعداء - تمالكت نفسى لأقول له :

- يا فؤاد. يجب أن تعرف أولا ماذا تريد

انتابتنى نوبة من الاشفاق عليه. كان الفضاء خاليا من الصقور. رأيت أن أساعده على التوقف قليلا أمام نفسه. أن تنبع طموحاته وانجازاته من داخله لا من خلال المقارنة بالآخرين رغم افتقاره إلى مواهبهم وأدواتهم.. لم أكن أفكر فى شراء مقبرة لنفسى حين قاطعنى بالسؤال عن أحد زملاء الدفعة الذين ذاع صيتهم فى عالم المقاولات الضخمة. حدثته عن نجاحه المبهر فقال بتهكم أصفر :

- كان أغبى أغبياء الدفعة وها هو يركب المارسيدس آخر موديل.

سألنى عن صديق شاعر فحدثته عن متاعبه الاقتصادية وصراعه اليومى مع الحياة للحصول على ضروريات أسرته فقال بمرارة سوداء:

- يكتبون الشعر لشعب يعانى من الفقر والجهل والبطالة والمرض؟..

هكذا وجدت فؤاد بعد طول غياب. عينان لاتثبتان فى محجريهما لحظة واحدة. تدوران فى أفلاك متصارعة حول حدقة من العداء لأى شئ.. وقلت لأبى أننى لن أجد فى حياتى من يفضله عندى حتى الموت.. عرفت جحيم المقارنة ولكنى نبذته.. لم تقتلنى الرغبة فى الامتلاك والتفوق الحقيقى أو الوهمى.. رأيتهم يحفرون فى الأرض فجوة ويضعون قريبى بداخلها ثم يهيلون عليه التراب ببساطة مذهلة. أشفقت على فؤاد وكنت على استعداد لانتشاله من شعوره الكامن بالعجز والفشل وتسرب سنوات العمر بلا معنى، لولا أن فاجأنى بقوله فى حرقة:

- كنت أتمنى أن تعرف داليا كيف تبتسم كتغريد

سقط قلبى بين قدمى ولو تماديت فى غيك بعد هذا العمر...

تنبأت بقرب وقوع العقاب.. نظرت بسرعة لا أرادية إلى تغريد. هناك شفرة خاصة بيننا توصلنا إليها بمرور سنوات المعاشرة الحلوة ففهمت على الفور أنها تقرأ فى سرها سورة الفلق ففعلت مثلها وأدركت هى الأخرى ما أفعل. تبدد على الفور شعورى نحوه بالاشفاق واستحال إلى شعور بالخوف والقرف، فودعناهما ودفعت الفاتورة متعمدا استثناء ثمن القهوة التى طلبها لنفسه وانصرفنا ونسيت الفجوة.

آخر مرة رأيته فيها كانت بالطريق العام. قررت المصادفة أن يكون فؤاد بالنسبة لحياتى مجرد عابر طريق لا تجمعنى به صلة دائمة. منذ عودته حاول كثيرا أن يقترب منى ولكنى كنت أخاف من عينيه لا من الحسد، وإنما من شكل النظرة وتكوينها بما تنطوى عليه من قلق والتواء وحدة وضعف وخبث ونفاذية، فما الذى يجبرنى على تحمل معاناة لا أطيقها. تكفينى معاناتى من وجود بهاء كامل على قيد الحياة بفجوته وخلله وعقله وتورمه وسعادته المزعجة بحالته..

رآنى مصطحبا صديقة ونحن خارجان معا من أحد المطاعم. لم يهتم أحدنا بذلك لأنه ليس هناك ما يدعو إلى الاهتمام.. لم يخطر ببالى أنه حين رآنا أطبقت على صدره أذرع الغيرة الأخطبوطية فراح ينزف دماء سوداء يبثها بين أصدقائى من الكتاب والفنانين من خلال ضحكاته المرحة الخادعة. لم تعبأ صديقتى بما أطلقه من شائعات حول علاقتنا فهى غير مرتبطة برجل، فضلا عن أنها شديدة التحرر وقد أمضت معظم عمرها فى فرنسا هائمة فى عالم الألوان والخطوط، كذلك لم يعبأ الزملاء به واتهمه البعض بالغيرة.

لكن ما أثارنى هو اندفاعه المفاجىء نحو هذه السيدة بعينها فيما يشبه المطاردة، فى كل مناسبة ثقافية أو فنية تحضرها يلح أمامها فى الحديث عن رصيده فى البنك بالعملتين وعن مؤلفاته حول التذوق الموسيقى وعن عثوره

على عمل بمصر يؤتيه عائدا خياليا، ثم ينهى حديثه بالسباب فى زوجته التى أصبحت تمضى نهارها فى «المضمضة» و«البقبقة» والوضوء والصلاة وليلها فى النوم والشخير وغالبا ماتصحو على كابوس ترى فيه ثروتها وقد سرقت بأكملها فأصبحت من المتسولات على باب مسجد أبى العباس المرسى ثم إنه لاينسى الإشارة إلى أن أباها الذى رحل تاركا لها ممتلكات عديدة كان فى بداية حياته يبيع الفجل والكرات على قارعة الطريق، أما أبوه فقد كان مديرا بإحدى المصالح الحكومية تقف أمام بيته كل صباح عربة حكومية يفتح له بابها سائق يرتدى الطربوش.

اتفقت أنا وصديقتى - وأنا خجل لعجزى عن فهم كينونة هذه الصداقة - أن نوقفه فى مواجهة مع أوجاعه النفسية وجوعه العاطفى وحرمانه الأبدى من الشعور بالسعادة. دعته لتناول العشاء معها بأحد الفنادق الكبرى وحددت له العاشرة من مساء أحد الأيام كموعد للقاء.

فى التاسعة التقينا بنفس المكان وحين اقتربت الساعة من العاشرة كنا فى سبيلنا إلى الانتهاء من تناول الحلوى التى أعقبت العشاء. لمحناه عن بعد قبل أن يرانا وهو فى طريقه الى المطعم، توقف قليلا ليستوعب صدمته، وحين أدرك أننا نضحك منه فإنه انصرف مسرعا من الفندق ولم أره منذ ذلك اليوم فى أى مكان.

هكذا شعرت بحلقات الحصار تضيق حول المجرم وأصبحت وشيكا أن أقبض بأصبعى على لسانه البذىء وألقنه درسا قانونيا لاينساه، وقال محمود كامل إن لكل إنسان نقيصته فسألته ماهى نقيصتك فقال إنه يفكر فى خيانة أمى بعد هذا العمر، كان يريد الزواج من كاترين.

طلبت من تغريد أن تتصل بفؤاد بدعوى السؤال عن داليا حتى نقارن صوته فى الهاتف بصوت المجهول على أن أحدثه من سماعة الهاتف الآخر وقد تم وضع جهاز التسجيل فى موضع العمل، فوجئنا بابنتهما الوحيدة الطالبة بكلية الآداب ترد علينا.

- سافر مع ماما كمرافق.

داليا هي التي اصطحبته معها هذه المرة إلى بلدة عربية أخرى أعيرت إليها، راتبان أفضل بكثير من راتب واحد. أما البنت فلا بأس أن تبقى وحدها حتى تستكمل دراستها فهي فتاة ممتازة، ولامانع أن تبيت يوما عند جدتها لأبيها ويوما عند جدتها لأمها ويوما بمفردها في البيت فنحن شعب متدين نعيش بحمد الله في أمن وأمان.

- ومتى سافرا؟

- منذ أسبوعين.

أي قبل بداية المكالمات المجهولة .. لا الجدول ولا دأبي المحموم في تعقب المجهول سوف يصل بي إلى نتيجة.

هل أفض يدي من هذا البحث المسعور عن وهم سخيف لايحتمل كل هذه المكابدة وأعود الى ممارسة حياتي كما هي دون أي تعديل، أم أفض يدي ولكن الى حياة جديدة أتخلى فيها عن جانبي المختل الذي استميت في سبر غوره دون جدوى؟

المؤسف أن هذا الخلل محبب الى نفسي، كما أني لا أريد أن أخدع نفسي أو أمكر على خالقي فالموت عندي هو قضيب قطار أعتدل باعتداله وألتوي بالتوائه.. الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات، والموت شيء والخلل المحبوب شيء آخر، أنا مجنون برغبتي في أن أصل مرة بالقطار ومرة بالعربة ومرة بالطائرة ومرة بالسفينة ومرة ماشيا على قدمي، ومرة أتنازل عن مقصدي أو أمحوه كلية من دائرة رغباتي بغير ذرة من ندم، ولقد كان زواجي هو الحائل الوحيد دون الاستمتاع الحقيقي بهذا الجنون، آه لو لم أحبك ياتغريد ولو لم تضحي لأجلي، عيبك أنك ما فكرت يوما في ايذائي أو الإساءة الى كي تقدمي لي مبررا واحدا للتحرر من قيدك، حبك قيد لجنون حريتي.. وأن أكون إنسانا طبيعيا منتظما ملتزما معتدلا فهذا ماليس بوسعي أن أحققه على الاطلاق، لقد اخترت أن أحوم ولا ألج.

كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه .. أن أجمع بين الجبر والاختيار مهما بدا لى الأمر متناقضا أو مستحيلا . لو وجدت بديلا لذلك لاخترته على الفور . هأنا أبرر أخطائى بصفاقة ولكن لمن؟ وكيف يتشدق صديق عمرى محمود كامل بالقول إنه سعيد لأنه صنع منى إنسانا أفضل منه، فما هى الفضيلة ولماذا لا أخطىء والله غفور رحيم،. ألم يقل لى شاب الترام أن الله يحبنى جدا.

***

- ٧ -

ماذا تظن بنفسك ياهذا المذبذب بين الدنيا والآخرة، المتأرجح بين الحق والباطل؟ أتستنكر وجود عدو واحد في حياتك وما أنت إلا مخلوق طيني من ثمانية عشر عنصراً لا طلعت ولا نزلت. دعه يعاديك يا أخي وتفرغ لبقية أيامك القادمة وعشها كيفما تريد . ستموت قبل أن تتحرر من سجن حريتك . هه. تسجن نفسك وتدعي الجنون. الحرية أن تنطلق في أي اتجاه، لكنك تدور بنفسك وتستعذب الالتفاف حولها تارة الى اليمين وتارة إلى اليسار ومرة فوقها وأخرى تحتها.. ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .. وأي كارثة.

ومادمت تستعرض الآن جرائمك الخفية فلا تنس أنك لم تقرب الزنا منذ تزوجت وحتى الآن، وإنما تستمتع بلعبة الكر والفر تاركا ضحاياك لمصائرهن في اللحظة الأخيرة .. من المذهل أنهن لايذكرنك إلا بالخير ولايصفنك إلا بالفضيلة وأغلب الظن أنهن جميعا واثقات من نفاقهن، تصفك وداد يوما بالسفالة ثم تعود فتشبهك بسيدنا يوسف، من قبلها وصفتك نيفين بالملاك الطاهر، أما الآنسة فوزية فقد كانت فريدة في تشخيصها لحقيقتك حين وصفتك نظراتها بالنذالة.

اتصالك بنيفين أو بوداد بعد انقطاع لم يسفر عن نتيجة. ياقوت كذلك وفؤاد . بحاجة أنت الى طبق من عنب ياقوت لتأكل منه بصحبة خدامتك أم السيد، أما فوزية فمن ذا الذي يعني بأمرها حتى يهددك بالقتل وهي المقطوعة من شجرة، ومامعنى أن تتصل بها الآن فتوقظ آلامها وتثير

أوجاعها وتبعث فى دمائها أملا زائفا كان قد راودها يوم عرفتك وتعلقت بحبالك الزئبقية المراوغة.

كانت فى التاسعة والثلاثين، مازلت أتساءل كلما تذكرتها لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ إن كان الجمال فهى على جانب كبير منه، وإن كان الخلق فلا غبار عليه وأما عن الشخصية فما أروع بأسها وما أعجب صبرها وصمتها ونظارتها المعتمة التى تخفى بلا مبرر جمال عينيها العسليتين.

فى البداية نبع تعاطفى معها من القلب شفافا خالصا لا تشوبه شائبة غرض، كنت أنصحها بالقراءة فتقول لى:

- كلما قرأت تبخرت ثقتى بمجىء العدالة.

وأنصحها بالالتجاء الى كنف الدين والتأمل فى الكتب المقدسة فتقول لى:- أشعر بنيران المقاومة تلسعنى .. تكوينى كل يوم ألف مرة.

مارست معها هواية أمى فى توفيق الرءوس فى الحلال، سبق لى أن تسببت فى التوفيق بين رأس أبى ورأس كاترين، والخيانة ليست بحاجة إلى تعريف، قدمت فوزية لصديق يناسبها وتناسبه، وما أن بدأت خيوط التفاهم تصل بينهما حتى سافر الصديق فجأة ولم يعد .. بغير لماذا أو كيف.

قدمتها لصديق آخر وضميرى يعذبنى لأنه لم يكن جديرا بها، لكنى رأيته رجلا على أى حال . رفضته فى إباء بعد أن حاورته لدقائق معدودة، قالت لى معاتبة:

- أيرضيك أن أصوم ثم أفطر على بصلة؟

تعددت لقاءاتنا حتى اعتدناها فأصبحت جزءا من طقوسنا الحياتية المعتادة، بدأ الأمر بالثرثرة ثم بأن أقسمت لى أنها لم تر فى حياتها رجلا عاريا، بل إنها لم تذق طعم القبلة مرة واحدة، ولما انتهى كل شىء إلى الصمت انتهى الصمت الى القبلات.

أن تظل فتاة حتى التاسعة والثلاثين تشتهى طعم الذكورة ولاتجرؤ على تذوقها ولاتعرف كيف تعرفها، فهو عذاب ورق وظلم واستعباد. أن ترى

بعينيها قريناتها منتفخات البطون فرحات بالولادة المرتقبة وقد نعمن بثمرة الذكورة وهاك الدليل، فمن الذى قرر لها هذا الحرمان ولماذا لاتتحرر منه قبل انسراق السنوات وتسللها فى انتظار قاتل وحسرة أبشع من الموت، أكان هكذا يكون حالها لو ولدت فى إيطاليا أو النرويج ؟ قالت لى فى لحظة يأس:

- أحيانا أغبط الساقطات على سوء حظهن.

احتويتها فى صدرى بحنان ثم فى عنف، كنت أشعر أننى أروى أرضا أنهكها الجفاف، فأحيل تشققاتها الإبرية الحادة الى نبض وحياة وخصوبة ونماء، كانت تبكى ولم أكن أستطيع أن أجزم - ولا أستطيع حتى الآن - إن كانت دموع سعادة بفتات الاشباع أم دموع ندم واستغفار وشعور بالذنب، أم دموع شهوة كتب عليها ألا تكتمل وإلا فآلاف العيون والألسن فى انتظار لايعرف الرحمة .. ومن كان منكم بلا خطيئة .. وأهلا يا «حبيب الكل» .

عذبنى شعورها بالحرمان فقلت لها باخلاص شديد

- أنا على استعداد لأن أفعل مايرضيك لتكونى سعيدة.

قالت بصوت ذكرنى برنين هاتف العدو لحظة سماعه:

- الزواج.

تساءلت وقد أخذتنى المفاجأة

- وأسرتى ؟

أجابت، غريقة تعلقت بقشة.

- لن اختصم من حقها خردلة.

أدركت أن تعاطفى معها قد ورطنى فى موقف لايحتمل غير الانسحاب.

رغم حيائها الشديد واعتزازها البالغ بكبريائها إلا أنها فاجأتنى بفوزية أخرى، لبؤة شرسة . أنيابها بارزة .عيناها تشعان شررا مستطيرا : «أنا لم أحب أحدا قبلك، أحتاج إليك حتى الموت، على الأقل فى هذه المرحلة من عمرى، أثق بك ولا أبوح بسرى لسواك، أعرف أنه من المستحيل أن أرتبط

بك الى الأبد ولكن...»

- ما الحل إذن؟

- زواج المتعة .

لم أتمالك نفسي من الضحك، إذ تصادف أن قرأت قبل اليوم بأيام قليلة موضوعا حول هذا النوع من الزواج، كنت أعتقد أن معلوماتها عن هذا الأمر سطحية كغيرها من النساء فقررت أن أفحمها فى جدل لامفر من انتهائه بانتصار من يعرف أكثر . قلت لها بهدوء.

- إنه حرام

فوجئت بالرد السريع الذى آثار ارتباكى ودهشتى معا.

- ألم تقرأ الحديث النبوى «حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة؟

- بل قرأته.

والحقيقة أننى كنت أسمعه للمرة الأولى .. ثم أردفت بقوة الغريق حين أمسك بيد منقذه.

- ألم تقرأ الآية الكريمة «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة» .

كانت تلك الآية هى صلب الموضوع الذى قرأته بالفعل، عند هذا الحد أيقنت أننى أتحاور مع ند فقلت لها بثقة العارف :

- لكنك لم تقرئى قول سيدنا عمر متعتان كانتا على عهد النبى وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة النساء ومتعة الحج»؟

- بل قرأته . ولكن هل قرأت قول عبدالله بن العباس، «ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها أمة محمد ولولا نهى عمر عنها مازنى إلا شقى»

المجنونة درست الموضوع باستفاضة تتضاءل أمامها قراءتى العابرة لصفحة الدين فى جريدة يومية . عندما لحظت ارتباكى خلعت نظارتها وهاجمتنى بعينيها المشتعلتين بنار التحدى والاختبار، تمسكت بقولها أن

نهى عمر لايلغى سنة رسول الله، وتمسكت بأننى متزوج وأن زواجى منها باطل بحكم الشرع مادام زواج متعة، أما أن أتزوجها شرعيا فوق تغريد فالتفكير فى ذلك ضرب من الهوس والملانخوليا، قالت لى فجأة بصوت حازم ونبرة قاطعة :

– لننه الحديث فى هذا الموضوع الى الأبد.

وأمام تشبثها العنيد بالفرصة اليتيمة المتاحة أمامها للحياة، وجدت تعاطفى معها يذبل ويذوى وينكمش وقررت أن أقبل التحدى، قلت لها إن تمسكها بالزواج منى لايعدو أن يكون نكتة تبرر بها رغبتها فى أن تشبع حرمانها العتيد.. وكنت أسير على الرصيف فى أمان الله وإذا بعربة هوجاء تقودها خدامتك أم السيد تندفع نحوى فتقلتنى ويدعى ياقوت الأسى ويتظاهر فؤاد – حفظه الله – بالحزن ويغطون رفاتى بجريدة معارضة فلا أشعر بذنب ولا يؤرقنى شعور بالعجز عن التوبة أو بالألم على فراق ساق أم أنور أو بالندم على خيانتى لأمى أو بالذعر من الفجوة، ويهرعون إلى منزلى لينقلوا الى زوجتى النبأ الأليم. بينما يدق جرس الهاتف معلنا عن العدو الذى لا أناصبه العداء لأنى لست أعرفه ولم أعرفه حتى الآن.

ضغطت علي الجرس ضغطة واحدة، عندما فتحت الباب أزعجتها غرابة المفاجأة فبدا الامتعاض على وجهها، كنت أعرف موقع منزلها ولكنا لم نلتق به أبدا، أى جرأة تلك التى دفعتنى إلى هذا الفعل الأحمق . أعلم أنها تعيش وحيدة مع أمها الأرملة العجوز، أما شقيقها الوحيد فهو يعيش فى مدينة أخرى ولايزورهما إلا مرة كل عام، وفى بعض الأعوام ينسى . الحكاية لا علاقة لها بالجرأة من بعيد أو قريب حتى لو فتح شقيقها الباب فما أسهل اختراع اسم وهمى والسؤال عنه ثم الاعتذار عن الخطأ والازعاج ولكن فى ثوان تحول انزعاجها الى نظرات استفهام يحدوها أمل غامض، لماذا جئتها حتى بيتها طائعا مختارا، لابد أننى عدلت عن رأيى القديم فأصبحت بين يوم وليلة من أنصار عبدالله بن العباس .

مازالت المسكينة تأمل بعد تجاوزها الأربعين أن تنعم بحضن رجل . من العدل أن تأمل . دعها تأمل، ولكن عليها أن تجيبك أولا من هذا الذى؟؟؟

– خطوة عزيزة يا بهاء بك.
– اعتذر عن انقطاعى عنك طيلة هذه المدة.
– يحق لى الاعتذار عن انقطاعى أنا الأخرى.
– كنت البادئ .
– بل أنا.

لم تتخلى عن كبريائها رغم هزيمة أجفانها الساحقة أمام الزمن، واثقة أننى جئت أطلبها فراحت تمهد بسرعة لإحكام السيطرة على نواياى، تدعى أنها البادئة بالقطيعة وهى تعلم أنها كاذبة. أنا أيضا كاذب كبير.

استأذنت لتغيير ملابسها وعادت بعد قليل فى صورة أكثر جمالا . اعتذرت عن عدم استقبال أمها لى. قالت إنها نائمة، للكذب ضرورة تضفى على الأشياء جمالا فى بعض الأحيان ولكنها تنزل بها أحيانا أخرى الى الحضيض.

جلست بجوارى فى طمأنينة وقد تفتحت مسامها للحب المسروق . أنت لص رغم أنك لم تسرق مالا. لم لاتكن رجلا وتواجه نفسك بالحقيقة؟ ماقاله العدو لتغريد صحيح تماما، سكير فاسق فاسد لايشبع ولايرتوى من النساء، أى نساء ؟ تغالط نفسك بتبريرات أنت أول العارفين بكذبها ياكذاب، إجعل من نفسك الحاضرة المنصرفة كاهنا وقورا واعترف له بخطاياك.

هه .. كل تصوراتك عن موقفها منك كانت أوهاما. هناك قرار يقبع خلف عينيها وتحت قميصها وفوق جلدها بأنها لن تسمح لك بالانصراف قبل أن تحقق أملها سواء بزواج متعة أو بدونه أو حتى بمجرد وعد بأى شئ . الأغرب أنك – بعد هذا كله – عاجز عن المقاومة تكاد تستجيب حتى النهاية أما من ضابط يكبح جماح نزواتك المراهقة، أنسيت الانذار؟ ألم تشبعك تغريد حبا وجنسا الى حد التخمة يابن الخامسة والأربعين؟

- لن أطالبك بشيء.. لماذا أنت متردد؟
- لا أعرف.

جذبتني ارتعاشات شفتيها الى عينيها فابتلعتاني فى لحظة . قالت بنبرات أعجز عن وصفها :

- لا تخف، كن مطمئنا كما لو كنت فى بيتك تماما.
- لا أستطيع.

قامت وجاءت الى بيجاما نظيفة مكوية وطلبت منى ارتداءها فى غرفة مجاورة.

- لا أرغب .

كذاب . أنت تعرف وتستطيع وترغب، لكنه صفرك المعشوق تتقافز من حوله وترقص على حد سيفه الباتر بأطراف أصابعك دون أن تدمى حتى الآن، سعيد أنت بكل مايحدث ، تعيس لو فعلت شيئا تتجاوز به نفسك.

قالت بغضب مكتوم:

- إذن لماذا جئت؟

صارحتها بالقصة كاملة فانفجرت فى ضحك عصبى وراحت تداعب رأسى بأناملها التى بدأت تودع عهد جمالها البائد.

- ياطفلى الكبير. أنت تضحكنى لدرجة الاشمئزاز.

رغم ذلك قبلت دعوتها للعشاء. أفهمتنى بهدوء كالموت أن أخاها مسافر فى بعثة وأن واحدا فى هذه الدنيا لايهتم بوجودها أو يفكر فيها إلا أمها العجوز النائمة فى شيخوختها المرهقة .. وقالت انها لو كانت تعرف رجلا غيرى لكان احتمال الغيرة أو المنافسة قائما، وتلك رفاهية لم تحلم بها لحظة.

- هل لديك تسجيلا لصوت أخيك؟
- لدى أكثر من شريط لمناسبات جمعت بيننا.

طلبت منها أن تحضر لى شريطا لأقارن صوته بصوت العدو فأجابتنى

بنبرة لائمة حازمة .

– اطلب منى ماتشاء عدا ذلك.

– لماذا؟

– لأن خوفك على نفسك أعماك عن وجودى.

وانهارت باكية . سقطت البيجاما على الأرض . كدت أسقط على وجهى فى الطريق الى منزلى لولا أن أخذت بيدى امرأة عابرة . لماذا لم يلتقطنى الرجل السائر بجوارها كما التقطتنى أمى وكما التقطتنى تغريد من قبل؟ وإذا كانت النجدة لاتأتينى إلا من المرأة فما تفسير حالتى مع فوزية ومامعنى أن أشهد عقد قران كاترين على أبى من وراء ظهر أمى، ولماذا نيفين ووداد أو أى امرأة وأنت ساكن فى قلب تغريد وفى عينيها . وكان الرجل سائرا فى أمان الله على الرصيف فدهستنى العربة ولبست نيفين السواد فاحتويت صدرها فى صدرى وقبلت تغريد وكم كانت قبلات نيفين ساخنة مفعمة بسحر الحزن الجميل وكم عشقت جنون وداد بالحياة وعجزت عن مجاراتها وخفت منها مثلما خفت من صاحب الانذار. ورغم أننى قد عشت مايزيد على ثلاثمائة وأربع وتسعين ألفا ومائتى ساعة حتى الآن إلا أننى لم أتعظ بقوله لى لحظة الوداع على الشاطىء والفجر يشقشق :

– إذا جعلت الله فى قلبك والدنيا على كفك فلن يكون لك عدو ماحييت.

- ٨ -

عدت الى المنزل وعلى فمى ابتسامة خائبة لامعنى لها، وجدت نسخة من احدى الجرائد المحلية موضوعة على مكتبى. ادهشنى أن هذه الجريدة متوقفة عن الصدور منذ عدة أشهر . رئيس تحريرها صديق قديم، كان دائم الشكوى من قلة الإعلانات التى تمولها ومن خشية توقفها عن الصدور، وهذا ماحدث بالفعل، ولكن ماالذى جاء بهذه النسخة الى هنا؟ قالت لى تغريد فى دهشة محببة:

– أنا لم أدخل مكتبك هذا النهار بالذات.

– فمن الذى وضعها هكذا؟

– الحقيقة أن هناك أشياء كثيرة بالمنزل أصبحت توضع وتختفى وحدها.

لم أكن قد صارحتها بظاهرة حضور نفسى المتكرر ثم انصرافها فجأة، وذلك حتى لا أبدو فى نظرها مهزوزا أمام خصمى . نظرت إليها فى بلاهة وهى تقول فيما يشبه الاقتناع :

– هناك جنى بهذا المنزل، أقطع ذراعى لو كنت كاذبة.

– وكيف عرفت هذا؟

– لا أدرى . لكنى أرى أشياء غير طبيعية تحدث منذ الاتصال التليفونى.

– مثل ماذا؟

– قبلاتك لى كل يوم عدة مرات على غير عادتك.

بدأت الماكرة فى العمل بعد صمت طويل . هاهى الأنثى تبدأ مناوراتها بالالتفاف من حولى – مثلما ألتف حول صفرى – ولكن على مسافة بعيدة حتى تضمن وقوعى ولو بعد حين فى شركها الخداعى.

لعلها المواجهة الحقيقية الأولى منذ رنين أجراس العدو، انتظرت تغريد طويلا أن أقدم لها تفسيرا أو إنكارا أو قسما بالله على إخلاصى لها. لكن شيئا من هذا لم يحدث، كل ماإستطعت تقديمه هو كيل من السباب للعدو بعصبية شديدة ربما كانت هى أول الخيوط التى أمسكت بها لتقودنى فى النهاية الى الاعتراف بجرمى، ترى هل أستطيع المناورة أنا الآخر للافلات من كمينها أم أنه من الأفضل لى أن أشهر استسلامى وأرفع رايتى البيضاء معلنا أننى رجل جبان قد أيقن من حب زوجته واخلاصها فاندفع مطمئنا وراء شهواته.

تغريد ليست سهلة. يمكننى أن أخلع عليها عشرات الصفات الحميدة التى لايحلم بها أى زوج ورغم ذلك فهى - فى اعتقادى - تنتمى إلى ذلك النوع من النساء الذى يمكنه أن يقتل فى لحظة، أخشى ما أخشاه أن تتوصل الى علاقتى الخفية بنفسى .لو علمت بسرها لاحتوتها واستدرجتها فى غيبة منى وجندتها فى خدمتها لا لتكشف عن ذلك المجهول وإنما لتبحث وتنقب فى أيامى وساعاتى ودقائقى الراقدة على كف ذلك الجنى المشاكس، فتقف منه على أسرارى وتكشف تاريخى السرى الحافل بالنذالة.

كانت الآنسة فوزية صادقة فى تشخيصها لحقيقتى رغم أنها لم تعلننى به، ورغم أننى اختلف معها حوله، وهاهى ذريعتى أرفعها على الملأ، فالنذالة صفة تتعارض مع وفائى لساق أم أنور ولحم أم رجب وماتحت قميص أم بطرس، النذل ينسى الجميل وينكره أما أنا فلا .

لفتت نظرى صورة حسن بهلول، تتصدر مقالا طويلا بعرض أربعة أعمدة تتوسطها صورة كبيرة لرئيس الجمهورية . هل كان من الضرورى أن أضيف اسم بهلول الى قائمة جدولى الفاشل؟ بهلول والصوت المجهول . عنوان درامى معاصر لايتعارض مع الافرازات الفنية المتقيحة للمناخ العام.

والأعجب أن تفرد له الصحيفة كل هذه المساحة ليمتدح رئيس الدولة فى مقال تحت عنوان «الزعيم» بلا منهج وبدون مبرر. برميل «طرشى» قديم

تعفنت رائحته بأفكار ساذجة وأخطاء نحوية رهيبة، سارعت بإنذار صديقى رئيس التحرير كتابة أننى سأكف عن التعامل مع الجريدة لو استكتبت هذا المعتوه مرة أخرى . حدث ذلك قبل توقف الجريدة عن الصدور بأسابيع قليلة. علمت بعد ذلك من أحد الزملاء أن صديقى أطلع بهلول علي نص الانذار.

ثار بهلول وتوجه إلى أقرب خمارة ولم يخرج منها إلا متطوحا يسانده أحد أبنائه الأربعة. لقد اعتادوا على ذلك منذ أدمن والدهم الاعتقاد فى أنه أصبح فجأة كاتبا كبيرا فترك عمله - وهو صاحب عدة محامص للفول السودانى واللب والحمص - وأصبح يمضى نهاره وليله بين مكاتب الصحافيين وعلى المقاهى التى يجلس بها الأدباء والمثقفون، ويشارك فى الندوات الأدبية بآراء لاتحتمل الشك فى أن صاحبها يعانى من البرانويا والشيزوفرينيا وعقدة الاضطهاد والخوف من الأماكن الضيقة وبعض العقد النفسية الأخرى التى لا أعرفها، وقد ازدادت حالته سوءاً عندما حصل على عضوية اتحاد الكتاب كمكافأة لخدماته الانتخابية لرئيس الاتحاد وأعوانه.

فى البداية كنت أشفق علي هذا المسكين كلما رأيته فى مكان وهو ينفق نقوده ويوزع سجائره على الأدباء ومعظمهم بطبيعة الحال من المفلسين، يستمعون إلى آرائه المفككة المفاصل ويرسمون بنفاق علي وجوههم معالم الانصات إليه بجدية شديدة . رأيت فيه ما أرى فى كثير من الوقورين ذوى الثقة الزائدة بالنفس الذين أوقعهم سوء حظهم فى الظن بأنهم أدباء أو فنانين رغم خلوهم التام من «لحسة موهبة» أو «لطشة» عبقرية .. ولولا الملامة لأعلن حسن بهلول فى أكبر حشد من الأدباء أنه كازانتزاكيس أبو كبير أو تولستوى المنوفية أو جوركى الدلجمون.

خرج بهلول من الخمارة مترنحا يسب فى الحزب الوطنى وحزب الوفد نادما على آلاف الجنيهات التى تبرع بها ليقبله أحدهما عضوا تأسيسيا به، وراح يصب لعناته على كاتب كبير مدعيا أن هذا الكاتب نصحه بترشيح

نفسه لعضوية مجلس الشعب كنائب مستقل عن دائرة الجمرك - أكبر الدوائر الانتخابية بالاسكندرية - فلم يحصل على أكثر من عشرين صوتا. ألقى باللوم والمسئولية على الكاتب واتهمه بالأمية السياسية.

عندما وصل الي باب بيته وبصحبته ابنه تحول بسبابه الي بهاء كامل. وصفي بالكاتب الحقير لأننى رفضت أن يوضع اسمه على صفحات الجريدة التى أكتب بها . فوجئت فى اليوم التالى برسول منه يحذرنى من مغبة حضور الندوة الأسبوعية التى يجتمع فهيا نفر من الأدباء مع الكاتب العالمى الكبير بكازينو الشاطئ . ولما رفضت التحذير بسخرية قال لى الرسول جادا:

- أنت تعلم أنه مخبول ، وهو يحمل مسدسا مرخصا .

- أتقصد أنه قد يفكر فى قتلى لهذا السبب ؟

قال لى بعد تردد :

- لقد أقسم على ذلك

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ولا تأخذ من الحمار الضعيف إلا الضراط القوى . توجهت إلى الندوة فى موعدها المعتاد . ما أن اقترب بهلول من باب الكازينو حتى قام أربعة من العمال الأشداء - بناء على اشارة من سبابتى - كانوا يجلسون إلى مائدة متطرفة بالكازينو . حملوه إلى الخارج وألقموه علقة ساخنة ثم اقتادوه بصحبتى إلى الشرطة حيث حرر له محضر رسمى ووقع بيد مرتعشة على تعهد بعدم التعرض لى بعد أن كاد يقبل قدمى من شدة الخوف والمبالغة فى الاعتذار . ثم راح يعبر لى عن احترامه الشديد لشخصى قائلا أنه يعتبرني أهم كاتب ومفكر ليس فى مصر وانما فى العالم العربى كله . ولما سألته مستوضحا دقة نواياه :

- وماذا عن يوسف ادريس ونجيب محفوظ والدكتور زكى نجيب محمود وعباس العقاد وطه حسين ؟

قال بحماس صادق لا يقل عن حماس العمال الأربعة - الذين

استحضرتهم من الشركة - فى ضربه وتأديبه :

- انهم يمثلون عهودا مضت وقد شاخت أفكارهم فلم تعد ملائمة للعصر.

- لكن أحدهم حصل على جائزة نوبل .

- أنا لا أعترف بهذه الجائزة فهى لا تمنح إلا لعملاء أمريكا واسرائيل .

- لكنى أحلم بنيلها يا بهلول فماذا تقول فى ؟

قال بصدق سالت له دموعى من شدة الضحك :

- يمين بالله العظيم ستحصل عليها باذن واحد أحد .

- وأمريكا واسرائيل ؟

- على الطلاق ستحصل عليها يا شيخ . فى عرضك أروح . سقت عليك النبى محمد .

ليته يكون هو الذى اتصل بى فى تلك الليلة انتقاما لكرامته على طريقته . لو كان هو فمن حقى أن ابتسم وأنسى وأعب فى جوفى كأسين أو ثلاثة أو أربعة .

فى منزل رئيس التحرير السابق تبادلنا الحديث عن رؤساء تحرير الصحف والمجلات واحدا بعد الآخر ، كان حديث ذم من الطراز الرفيع ، إذ أن واحدا منهم لم يخل - عندنا - من عدة نقائص تودى به إلى قاع الجحيم بأثر رجعى ربما يمتد إلى ما قبل ولادته بألفى عام . كان استمتاعنا بالنميمة مطلقا بغير حدود ، فكل منا فى أمان من الآخر . أنا أدرك ضآلة حجمه المهنى وقسوة معاناته من البطالة وانعدام تأثيره فى مجاله ، وهو يدرك أن انتمائى للكتابة لا يتجاوز حد الهواية أمارسها إلى جانب عملى الأساسى . لاحول لأحدنا ولا قوة فى عالم الصحافة ولا تأثير لأحدنا على الرأى العام . لكن صحافيا معينا هو الذى استأثر عن جدارة بالقسط الأكبر من جلسة الذم والنميمة نظرا لكفاءته المشهودة فى المدح والقدح والكر والفر طبقا للظروف ومقتضيات الحال ، ولقدرته الرهيبة على

الاستفادة الفورية من الأحداث والأشخاص خاصة الملوك والرؤساء والأمراء العرب الذين يفرد للحديث عن مآثرهم صفحات كاملة من مجلته الأسبوعية . وشيئا فشيئا تذكرنا أن ملامح وجه هذا الصحافى الكريه وجسده تكاد تكون مطابقة لملامح حسن بهلول الخنزيرية الطابع ، ولله فى خلقه شئون .

عند ذكر بهلول تغيرت ملامح وجه صديقى ، إذ اكتست فجأة بغلالة من الحزن النبيل الذى لم أعرف مصدرا لنبله . ولما سألته عن السبب قال لى فى دهشة :

– ألم تعرف ماذا حدث له ؟

– نعم ... هل مات هو الآخر ؟

– لا . انه مسجون .

– لماذا ؟

كان بهلول قد أصدر كتابا على نفقته الخاصة . لم أفهم ان كان هذا الكتاب مجموعة مقالات أم مشاريع قصص أم خواطر مبعثرة أم هو مزيج ركيك ساذج من كل هذا الشتات . وحين تصفحت يومها بعضا من أوراقه اندفعت فى دوامة مرهقة من الضحك وأمضيت مع بعض الأصدقاء ليلة حافلة بالتندر والمرح ونحن نقرأ آراء بهلول فى السياسة والثقافة والنقد والقومية العربية والكتاب الأخضر والثورة الثقافية والجنس والمخدرات والعدالة الاجتماعية . ومما أحزننى حقا أنه أصيب باكتئاب شديد عندما لم يعلق ناقد واحد أو حتى محرر أدبى مبتدئ على كتابه فى جريدة أو مجلة حتى ولو من باب السخرية .

– قضية مخدرات .

لم أتمالك نفسى من الضحك وأنا أسأله :

– بهلول ؟ الكاتب الكبير . عضو اتحاد الكتاب .. تاجر مخدرات ؟

– قضية حيازة وليست تجارة .

وعده أحد النقاد - إياهم - بالكتابة عن كتابه ولكنه طلب منه شيئا محددا كان مختفيا من الأسواق . فرح بهلول بهذا الوعد وأحضر المطلوب بشهامة نادرة ورجولة مفتقدة فى هذه الأيام .

قبض عليه فى مقهى شعبى متواضع يقع فى مواجهة منزل الناقد ، كانا قد تواعدا على اللقاء به . قبل وصول الناقد بثوان هجمت «كبسة» مفاجئة من العساكر والمخبرين والضباط على المقهى بحثا عن أحد المتطرفين الدينيين الهاربين من أحكام جنائية . ألقى القبض على الجميع بما فيهم كاتبنا الهمام .

يقول فى كتابه «لا أحد يقدر عبقريتى» . لن يعرفوا قيمتى الحقيقية إلا بعد خمسين عاما من وفاتى . سأحدث ثورة فكرية على مستوى العالم كله . سينتفع ورثتى بالملايين التى سوف تدرها مؤلفاتى العظيمة . أبعد هذا كله تطردنى حبيبتى من المكان وتبصق فى وجهى وتلقى باللب والحمص فى صفيحة القمامة ؟ لا .. لن أقتلها .

عند التفتيش عثروا بجيبه على قطعة من الحشيش . بال على نفسه وهم يضعونه فى «البوكسفورد» لحظة عبور الناقد الطريق إلى المقهى .

– كانت آخر مقالة له بالجريدة قبل توقفها بعنوان «الزعيم» .

– أذكر هذا جيدا ، وبالمناسبة لماذا وشيت بى عنده ؟

قال بلهجة لا توحى بالاعتذار :

– لأنه استفزني بشدة إذ ادعى أنه فى مقام «سارتر» وطالبنى بمائتى جنيه عن هذا المقال .

التمست العذر لخيانة صديقى الحميم فأنا أحسن من يلتمس الأعذار للجميع وأولهم بهاء كامل .. ثم رويت له قصتى مع الهاتف المجهول .

* * *

- ٩ -

بعد تأمل عميق وتدخين كثيف قال صديقى العاطل بثقة وفيرة :

- هو أسعد ندا ولا أحد غيره

أسعد ندا ؟ .. اسمه ليس بالجدول . خيبك الله بجدولك هذا . نعم . لم لا يكون هو ، وقد كتبت فى هامش الجدول بدائرة الفن أنه ربما يكون أحد الحاقدين .. بهلول مسكين وليس بحاقد . على العكس فهو انسان طيب القلب حسن النية تعادل شهامته غباءه . أما أسعد ندا فهو حية رقطاء لدغتها والقبر . التفكير فيه يتطلب قدرا هائلا من التركيز والتنظيم . سوف أتعامل مع اسمه بمنهج محدد يتمثل فى تجميع المعلومات وتحليلها للوصول إلى النتائج .

التجميع :

الاسم ثنائيا - أسعد ندا

الجنسية - مصرى طبقا لبطاقة هويته وجواز سفره

العمر - خمسة وأربعون عاما

العمل - لا يوجد ، لأنه لم يمارس أى مهنة منذ حصوله على ليسانس الآداب قسم الفلسفة منذ ربع قرن .

مصدر الدخل - راتب شهرى يصله من أبيه الاقطاعى السابق المقيم بالأرياف والمتطلع القديم إلى السلطة .

الهواية - كتابة القصة والرواية وهو يتميز بأسلوب شديد النعومة ويتمتع بثقافة عالية وموهبة فنية لا بأس بها .

الميول السياسية :

١ – كراهية مستترة لمصر ما بعد ١٩٥٢ ولكل «الرعاع» الذين يأكلون من خيرها .

٢ – حب شديد لاسرائيل وتعاطف مرضى مع اليهود وإنكار تام لحقوق شعب فلسطين واحتقار شديد للأمة العربية بوجه عام .

٣ – عضو بجمعيتى الصداقة المصرية الاسرائيلية والمصرية الأمريكية .

٤ – لا ينتمى لأى حزب سياسى معلن بمصر .

الحالة الاجتماعية : متزوج وليس لديه أبناء ويشاع فى الأوساط الأدبية أنه تزوج لمجرد ارضاء أسرته .

أهم سماته الشخصية :

١ – الجبن الشديد والنفاق الأشد والنعومة المتناهية .

٢ – يخاف من الزحام وعبور الطريق وركوب العربات بجوار السائق وكذلك من مؤخرات النساء الرجراجة .

أسماء المخلوقات البشرية التى تحيل حياته إلى جحيم لحظة ذكرها :

١ – بولس الوكيل – ٢ – كمال الكيلانى – ٣ – بهاء كامل .

أسماء المخلوقات التى يحبها :

– لم يستدل على اسماء آدمية ، أما من الحيوانات فهو يحب الأرانب ومن الطيور الغربان ومن النباتات الملوخية .

معالم الوجه – استفزازية غير مريحة .

علاقته بالأديان – ملحد لا يجرؤ على إعلان إلحاده .

دائرة الأصدقاء – مجموعة من المنتفعين بدعواته لهم لتناول الطعام والمشروبات الكحولية ومعظمهم يسبونه فى غيابه .

علاقته بالجنس الآخر – قبل الزواج : لا توجد ، لشدة خجله من النساء.

بعد الزواج : فاترة للغاية .

ملاحظة :

هناك معلومات أخرى جمعتها عنه ولكنى لم أشأ ادراجها ضمن المعلومات المؤكدة عملا بالآية القرآنية الكريمة «إن بعض الظن اثم» ، إلا أنه يمكن الاشارة إليها فى عجالة واسأل الله أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر .

تضمنت تلك المعلومات أنه يتقاضى مبالغ معينة من بعض الجهات الأجنبية ككاتب تقارير من الدرجة الثالثة . ولما ناقشت مصدرى حول هذه المعلومة الخطيرة – مستعيذا بالله من سوء الظن – فإنه لم يكتف باتهامى بالسذاجة وانما أنعم على بلقب العبيط . ولما سألته المزيد من الايضاح والتفسير أخبرنى أن أسعد ندا يشترى كل صباح – بما لا يقل عن عشرين جنيها – جميع الجرائد والمجلات والكتب المصرية والعربية التى تخرجها المطابع ثم يتوجه بها إلى مقهى الحرية . يجلس على مقعد فى أحد الأركان الخالية من الرواد . يقوم بعملية فرز وتصنيف ويضع خطوطا تحت بعض العناوين ويقطع بعض الصفحات ويصور بعض المقالات وما إلى ذلك من خطوات أقوم بها أنا نفسى كمهتم بالثقافة دون أن يخطر ببالى أن يظن بى أحد مثل هذا الظن البغيض . سألت مصدرى :

– وهل تعلم الجهات المعنية بما يفعل ؟

– نعم .

– فلماذا يتركونه ؟

– هناك سببان . الأول هو عدم توافر الأدلة الملموسة على تلبسه بالجريمة . والثانى أن بعض المعنيين بالأمر يستغلون تورطه للحصول من خلاله على معلومات عن العدو دون أن يدرى .

– كل سبب من هذين السببين أضعف من الآخر ويصعب تصديقه .

– أنت دائما تحسن الظن به وتدافع عنه .

– أنا أدافع عن حريته فقط ، فايمانه بسياسة التطبيع مع اسرائيل لا

يعنى أنه خائن أو عميل .

– وهل نسيت فرحته بنكسة ٥ يونيه ؟

– لم أنس ولكنى ألتمس له العذر وقد التهمت الثورة ثروة أسرته بأكملها ولولا السادات لتضوروا جوعا .

– هل تستفزنى لألقنك درسا فى الوطنية ؟

– بل دعنى ألقنه أنا لك . الوطنية عطاء متبادل بين الوطن والمواطن . وإن سلبنى الوطن ما أملك فماذا ولماذا يمكن أن أعطيه ؟

انتهت الملاحظة .

التحليل :

أسعد ندا كاتب جيد تقاطعه مؤسسات النشر القومية بسبب إصداره لبعض أعماله الأدبية من اسرائيل رغم أنه ليس الكاتب المصرى الوحيد الذى فعل ذلك . لو لم يقتل السادات لأصبح من مشاهير كتاب مصر . وحيث أنه يملك المال الوفير فإنه راح يصدر كتبه من مصر على نفقته الخاصة – أى نفقة أبيه – منتظرا ردود الفعل النقدية كشأن أى كاتب فى أى مكان بالعالم . لكنه فوجئ بمقاطعة من نوع غريب .

لقد اكتشف كل من كمال الكيلانى وبولس الوكيل – وهما كاتبان شهيران يشغلان منصبين هامين بالمؤسسة الصحافية القومية – أن الهجوم النقدى أو الاعلامى على أعمال أسعد ندا لمضامينها الاستفزازية المثيرة قد يؤدى إلى شهرته وذيوع اسمه واندفاع القراء إلى اقتناء كتبه ولو لمجرد معرفة حكايته ، ولهذا فإن المقاطعة بالصمت هى الحل الأمثل معه .

أما أنا فلم أراجعه فى قراره بالنشر فى اسرائيل أو جزر القمر إيمانا منى بحقه فى ذلك . لكنى حذرته من كارثة مقبلة ونبهته أن يكون مستعدا لتحمل نتيجة موقفه بشجاعة مادام مؤمنا به . ولقد اتضح لى أنه لم يكن شجاعا وانما فقد أعصابه وأصيب بإسهال دائم ، واكتئاب وربما بال على

نفسه مثل بهلول ولم يخطرني بذلك .

كلما صدر لى كتاب أدبى رأيت الحسرة فى عينيه وهو يهنئنى ، وكنت ألتمس له العذر واضعا نفسى مكانه . وكلما أذيع لى نص مسرحى أو نشر لى حديث صحافى لمست مدى اضطرابه واهتزازه وهو يعلق عليه بمديح مفتعل ، فألتمس له العذر مرة أخرى واضعا نفسى مكانه .

كنت أحسد نفسى على روحى الرياضية تجاهه ، لكن حسدى هذا لم يدم طويلا ، فقد سمعته مرة - فى ندوة صيفية تحمل اسم كاتب كبير - يبرر باقتناع تام وتعاطف صريح كسر جنود اسرائيل لأذرع الأطفال الفلسطينيين الذين يقذفونهم بالحجارة قائلا انهم مضطرون إلى ذلك دفاعا عن أنفسهم . ثم سمعته مرة أخرى يبرر ابادة الهنود الحمر على أيدى الأمريكان بأن الحضارة أحق بالبقاء من التخلف والهمجية بغض النظر عن ملكية الأرض لمن تكون .

عند هذا الحد تحول الحسد إلى نفور واشمئزاز ، خاصة عندما قرأت له قصة يتباهى راويها برفرفة علم اسرائيل على أرض فلسطين مهللا لنجمة داود وهى تخفق عاليا فى السماء العربية . وأخيرا علمت بمسألة التقارير فلم أعد أطيق رؤيته وامتنعت تماما عن حضور ندوة كاتبنا العالمى الكبير .

وكاتبنا هذا - الشهير بالأستاذ - هو الوحيد الذى فتح له صدره بحيث اضطر الحاضرون إلى تحمل وجوده بينهم احتراما للأستاذ وتوقيرا لمجلسه وحبا لشخصه . فأسعد ندا لا يجرؤ على حضور أى ندوة أخرى بالمدينة والا تعرض للهجوم والسب وأحيانا للاعتداء عليه بالصفع واللكمات كما حدث من قبل .

كنا نتعجب جميعا كيف يسمح له الأستاذ بالحديث معظم الوقت عن نوايا اسرائيل الحسنة تجاه السلام وعن تفكك العرب وتخلفهم وعن إخلاص أمريكا العظيم للقضية الفلسطينية . بل إن معظمنا مازال يتعجب فى بلاهة

حتى الآن .

وبعد مرور عام على مقاطعتى للندوة التقيت بالاستاذ مصادفة قرب شاطئ سان ستيفانو ، فلامنى بأدبه المعهود على اختفائى المتعمد . شرحت له أسبابى بوضوح ودون اختصار . فوجئت به يقول لى :

– أرجو أن تحضر لأجل خاطرى .

سحقنى بتواضعه المدروس بحيث لا يدع أمامى مفرا من الامتثال لرجائه. رغم ذلك لم أكف عن محاولة اقناعه .

– لا استطيع ، فلم أعد أحتمل رؤيته أو سماع صوته .

– يا سيدى .. كثير من الحاضرين لا يحبون بعضهم البعض لكنهم لا يظهرون ذلك فى المجلس .

– حرصى على استمرار الندوة وعدم إفسادها يحتم على الامتناع عن حضورها .

قال بحزم أبوى :

– سوف انتظرك فى الأسبوع القادم .

ولم أحضر ...

فى غيابى وصفنى أسعد ندا بالصديق الخائن . الذى يطعن فى الظهر . ضيق الأفق . محدود الرؤية . الدوجماتيك الذى يجهل أبجدية الحوار بين المثقفين . الانتهازى مدعى المبادئ والقيم . الذى تنشر أعماله لا لجودتها وانما لاتصالاته الوثيقة بأولى الأمر .. وهكذا أضافنى إلى قائمة كمال الكيلانى وبولس الوكيل فى سجله الأكثر فشلا من جدولى إياه .

الصوت ليس صوته . الأسلوب البذئ الذى هوجمت به فى الهاتف ليس أسلوبه . وما الذى يمنع أن يستأجر صوتا يؤدى له هذه المهمة ؟ . قررت مواجهته بنفس الأسلوب الذى اتبعته مع ياقوت . العين فى العين والقرار للفطرة والاستلهام من الغريزة . وهاهى الفرصة سانحة بحجة الاستجابة إلى رسالات الأستاذ الشفهية التى واظب على ارسالها إلى من خلال بعض

الأصدقاء بارسال تحياته معهم بغية إحراجى لأتراجع عن موقفى وأعاود الحضور .

كان حضورى مفاجئا للجميع وعلى رأسهم الأستاذ الذى قبلنى وقرصنى من خدى وربت بيسراه على ظهر يمناى التى كانت تصافحه بمودة .

رأيته جالسا فى مواجهة الأستاذ محاولا اخفاء ارتباكه من المفاجأة . أدهشه أننى حييته مثلما حييت الآخرين كلا باسمه . لحظة وصولى ترامت إلى سمعى كلمة اسرائيل فبلعت ريقى وقلت أمرك لله يا «أبو كامل» فما أتعس لحم شوارتسكوف إلى لحم أم رجب . بمجرد جلوسى سارعت بالتعليق متجاهلا كل الاعتبارات .

– دين اسرائيل وأم اسرائيل .. ألن ينتهى هذا الموضوع ؟

ابتسم كاتب التقارير . كان اصفرار البسمة فاقعا . تبادل الجميع النظر فى توتر مستتر ، بينما ادعى الاستاذ عدم انتباهه لما قلت . سارع أحد الجالسين بامتصاص الموقف قائلا .

– لقد جئت متأخرا يا بهاء وكأنك على موعد مع اليهود ، فمنذ دقائق كنا نتحدث عن المسيحيين ومن قبلهم عن المسلمين .

تصادف أن جاء مجلسى إلى جانب واحد من رواد الندوة الذين أفسد الأدب عليهم حياتهم فسادا لا يرجى من بعده اصلاح . مال إلى فى هدوء وقال ببؤس شديد .

– ألن تطلب لى فنجانا من القهوة ؟

أدركه الأدب ففقد الطب والأدب . تحول إلى مجرد موظف بدرجة طبيب . أعزب وحيد تجاوز الأربعين . يؤدى عملا روتينيا بالتأمين الصحى يتقاضى عنه راتبا شهريا ضئيلا لا يكاد يكفى ثمن سجائره وكتبه التى لاتمت إلى الطب بصلة . قلت له باسما .

– أيعجبك هذا الكلام يا دكتور ؟

فوجئت به يهمس بلهجة جادة فى أذنى خشية أن يسمعه أحد :

- المشكلة ليست فى ليبيا أو العراق ، فقد سبق أن ضربوا محمد على ثم عبدالناصر ثم السادات والعلاج لم يأت معى بنتيجة . لو عينوك محافظا للمدينة فأرجو أن تمنع الدكتور صبحى الكيال من علاجى بالجلسات الكهربائية . لماذا لم تترجم أعمالك مثل الاستاذ و«الروشتة» بخمسين جنيه شاملة الفهد والأسد ؟ ....

لم أتمالك نفسى من الانفجار فى الضحك . وحتى لا أسبب له حرجا طلبت له القهوة فربت بحنان على ظهرى ... كان قد سلمنى منذ صيفين رسالة داخل مظروف مغلق وطلب منى أن أقرأها فى تمهل بالمنزل . جاء برسالته التي أرفق بها ورقة مالية من فئة العشرين جنيها :

«سيادة المقدم سمير عبدالعزيز مدير مباحث العطارين . بعد التحية . ألتمس من سيادتكم إيقاف النزيف البشرى الذى يحدث فى حى الأزاريطة منذ قدوم العرب إليها ، حيث تسعى شبكات الفيديو والدعارة الليبرالية والمخدرات الأصولية إلى تجديد حيويتها باصطياد وجوه جديدة من الريف وراسبات الثانوية العامة وصاحب البيت لم يسلمنى الايصال رغم أننى دفعت له الايجار بشهادة مندوب اليونسكو . وأثناء سفرى إلى القاهرة وجدت أسعار المبيت السياحى فى شقتى قد تضاعف إلى خمسمائة جنيه قيمة مبيت العربى وزوجته وأنا وزوجتى والأولاد وبواب العمارة وأولاده وأرامل شهداء يونيه وأكتوبر مع الفيديو بالاشتراك مع هيئة الصحة العالمية والدكتور صبحى الكيال» .

لم أكن قد التقيت به خلال العامين الماضيين . لذلك توقعت أن يسألنى عما فعلت برسالته التاريخية التى لم أدر لماذا خصنى بها . لكنى حمدت الله أن نساها تماما .

لم تفارق عيناى وجه أسعد . يحاول التودد إلى بنظراته المحيرة . إما أنه الفاعل وهو الآن خائف منى . وإما أنه برئ وهو الآن خائف منى . بدت علامات الارتياح على وجه الأستاذ حين رآنى أضحك فأدركت أنه سمع ما

قلته من قبل . قال الأستاذ معقبا على قول أحد الحاضرين أننا معشر الأدباء نعيش حياتنا بطريقة مرضية إذ نحصرها فى هدف واحد هو المجد الأدبى فان تحقق لم نجد ما نفعله بعد ذلك وإن لم يتحقق أصابتنا الأمراض والعلل وعشنا فى تعاسة حتى الموت .

انطويت على نفسى أفكر باستمتاع فى فلسفة الأستاذ . استدرجنى الحديث الجماعى إلى حوار مشترك مع كاتب التقارير . كان ودودا معى للغاية حتى أننى شعرت بالذنب لشكى فيه .

من المستبعد حقا أن يكون هو العدو فهو أجبن من ذلك . أما انحيازه لاسرائيل فهو رد الفعل الصبيانى الهزيل لمقاطعة دور النشر القومية لأعماله . وأما كراهيته لوطنه فهو رد الفعل الغريزى لسلبه أمواله . وماذا كنت تفعل لو كنت مكانه ؟ . مثل هذه الأسئلة السخيفة لم تعد صالحة حتى للديدان .

عدت اذن إلى التماس الأعذار . ومن يلتمس لك العذر فيما قد تفعله بعدوك لو وقع فى قبضتك ؟ ولماذا تصدق الأستاذ وتسحرك فلسفته ولا تعيش حياتك الحقيقية ؟ ... أنا لست أرى علاقة أيها الوغد بين شكك فى أسعد ندا وتفكيرك المراوغ فى هجر مهنتك والانضمام إلى قافلة المعذبين .. ربما تريد أن يجئ عليك يوم تجلس فيه على مقهى «سبلندد» لتتصيد الغلمان كما قال لنا مدرس اللغة العربية عن مصطفى كمال أتاتورك . ربما تريد أن يجئ عليك يوم تجلس فيه إلى ندوة أستاذ آخر فتميل إلى الجالس بجوارك تسأله فنجانا من القهوة . لماذا تستسلم لنفسك ؟ . اصرفها . انها تعبث بك . اصرفها وابحث عن الاجابة عند «حازم شفيق» فجلالة الملك يحيى حرس الشرف والمدفعية تطلق تحية لعقاله الحريرى . أما أسعد ندا فهو لا يجرؤ على معاداتك إلا فى قلبه .

* * *

- ١٠ -

وصف تفصيلى للمشهد كتبته من خارجى :

بهاء كامل المؤلف الاذاعى غير المشهور يجلس بجوار حازم شفيق المخرج المشهور ومساعده الفني (وهو مشروع مؤلف فاشل) أمام الاجهزة داخل الاستوديو غير المكيف . الثلاثة يدخنون بشراهة. الممثلون يؤدون مسمعا جنائزيا مؤلما. احدى الممثلات تعيش الدور فتنهمر فى بكاء حقيقى . المخرج سعيد جدا بصدق الأداء. يعبر عن اعجابه بالمؤلف بحماس. لافتة على الباب مكتوب عليها ممنوع التدخين. المساعد الفنى يهمس فى أذن المخرج الذى يبدو أنه تأثر بما سمعه لدرجة أنه صاح فى عصبية .

– ستوب .

توقف الممثلون عن الأداء فى دهشة واستنكار فقد كانوا مندمجين فى أدوارهم دون خطأ واحد . صاح حازم شفيق فى وجه بهاء كامل بعصبية استعراضية مفتعلة:

– ارحموا الجمهور من الحزن والغم يا أستاذ .

– لا أفهم .

– سوف ألغى هذا المسمع كله .

– يختل العمل تماما لو حدث ذلك

– لا أعرف.. تصرف . أمامك ورقة وقلم .

– ولكنك تحمست من قبل للنص كما اعتمدته لجنة القراءة .

– لن أذيع هذا المسمع .

تحولت عصبيته بالتدريج الى صياح غاضب فسباب لا مبرر له . اعتاد

حازم شفيق معاملة الممثلين والمؤلفين بهذا الاسلوب. انصبت عيون الممثلين على بهاء كامل الذى يتعامل معه لأول مرة . فوجىء الجميع ببهاء يجمع أوراقه وينصرف فى هدوء مغادرا الاستوديو . كانت عدة حلقات قد أذيعت من المسلسل الدرامى. اتجه بهاء الى الحديقة المؤدية الى الشارع. فى البداية انتظر حازم فى ثقة أن يعود بهاء متراجعا . بعد قليل تناقصت ثقته فتردد. خرج الممثلون يرقبون المشهد. المطر يتساقط والرياح شديدة . حازم يخرج مهرولا فى أثر بهاء. تقع المواجهة قرب نهاية الحديقة بينما يقف الممثلون جميعا على السلم المؤدى للحديقة وقد بلغ بهم حب الاستطلاع مداه. صاح حازم .

- ما هذا ؟ .. كيف تأخذ الحلقات وتنصرف ؟

- أبسط رد على إهانتى .

- الاختلاف فى العمل لا يبرر موقفك .

- ليس هذا اختلافا وانما وقاحة .

- اعطنى بقية الحلقات من فضلك .

لم يكن من حقى أخذ النص الأصلى بعد أن اصبح ملكا للاذاعة رغم وجود أكثر من صورة له. لو كان طعامى من الأدب لما جرؤت على مواجهته ولما شاهد الممثلون . - بوجوه شامتة - المشهد الختامى التالى :

بهاء كامل يلقى بالحلقات على نجيل الحديقة الغارق فى مياه المطر. الهواء يبعثر الأوراق. حازم شفيق ينحنى الى الأرض ليجمع الأوراق المتناثرة المطينة. بهاء كامل يقف فاتحا ما بين ساقيه ويداه فى وسطه صائحا :

- لا تنس مرة أخرى اننى أمارس الأدب كهواية .

الصوت ليس صوته ، فحازم يقترب من الستين . أيكون مساعده الفنى المريض - كفؤاد طبليه - بالحقد على المبدعين . من يكون بحق الجحيم ؟ .. من هو ذلك المخلوق الذى جعلنى أقبل للمرة الأولى فى حياتى بفكرة أنه من

الطبيعى أن يكون لكل انسان أعداء يكرهونه ويحبون له الأذى ؟ ..

قبلت أو لم تقبل فهذه حقيقة راسخة من قبل أن تحظى بلحظة وجود من سنواتك الخمس والأربعين . قبل سماع فحيح صوته كنت أرى فى الغيرة دافعا للتنافس الشريف وفى الحسد ضعفا إنسانيا يمكن تجاوزه ، وفى العنف رد فعل يمكن استيعابه ، وفى الإهانة تجاوز يمكن التغاضى عنه أو التسامح بشأنه. قبل رنين جرسه كنت أواجه من أسميهم خصومى بأساليب متنوعة تضمن لى ألا أستثير عداءهم دون أن أتوقف عن السعى والحركة . الحرقة البادية على لهجته تجبرنى على إعادة النظر فى أسلوب حياتى فهل هذا ممكن ؟ .. وبعد أن عشت أكثر من ثلاث وعشرين مليونا وستمائة واثنتين وخمسين دقيقة ، أما زال هناك متسع من الوقت لإعادة الحياة على نحو جديد أشك فى قدرتى على التعامل معه بنجاح ؟ ..

- ١١ -

أخيرا وقع العدو فى الفخ . تحدث مع تغريد لفترة طويلة ونجحت فى تسجيل الحوار كاملا .

- أين بهاء ؟

- فى عمله . من حضرتك ؟

- أنا صديق . أرجو اعطائى رقم تليفونه بالعمل .

كانت على وشك أن تسأله كيف يكون صديقه ولا يعرف رقم هاتفه، لكنها قالت له :

- أسفة : أچندة الارقام بغرفة المكتب وهى مغلقة .

لاحظت تغريد ان صوته مختلف هذه المرة وكذلك أسلوبه فقد كان مهذبا .

- لا يهم . سأكلمه فيما بعد .

- هل تريد أن أبلغه رسالة محددة ؟

- دعينى افكر .

- ما اسم حضرتك ؟

- فاعل خير يرغب فى إنقاذ حياتك .

- وهل ترى أن حياتى مهددة؟

- سوف أثبت ذلك لو شئت أن نلتقى .

كنا قد تبادلنا الرأى حول هذا الاحتمال من قبل ، واتفقنا على مسايرة العدو الى النهاية حتى لو اقتضى الامر ادعاءها الموافقة على لقائه. ولما كان العداء مرتبطا بأفعال محددة أبرزها الهجوم، فقد هجم الرجال على خصومهم بآلات حادة ضخمة يتجاوز حجم الآلة حجم ثلاثة رجال من

العمالقة . خمسة ضد ستة والجميع مسلحون، وبعضهم بعين واحدة. من شرفة الفندق القديم سمعت أصوات ارتطام الحديد بالعظم البشرى. سال نهر من الدماء طوله أحد عشر رجلا ونصف رجل أفنوا أنفسهم فى دقائق . طاردتنى صيحات وحشية حتى مشارف المدينة. آه من غربتى وحفائى ومن غيبة الدليل . فى الليل عدت فلم أعرف الفندق. أريد أن أنام ولا أحد يعرف المكان أو يريد أن يدلنى عليه. أين الاصدقاء الذين أحبهم وأثق فى أنهم يحبوننى ؟كاسحات الأسمنت والقطران والزلط ترصف طريقا عاليا. تكاد تدهسنى احداهن. ضجيج الماكينات يزلزل أعصابى المنهكة من قيظ الوحدة وجفاف الحياة بلا أحباء . أقترب من بناية قديمة على بابها قبضة يد حديدية صدئة تمسك بكرة الطرق المألوفة. يفتح لى الباب كائن غير آدمى يقولى لى فى سخرية :

– كيف تمسح لنفسك . كيف تسمح لها ؟ .. تفضل يا معاصر .

اندفعت الى الداخل. رأيتها معه. لا أنت تغريد ولا أنا بهاء. أتخلعين ملابسك لرجل غيرى بينما لا أجد مكانا أنام فيه ؟ . ما كنت أظنك تنكريننى بعد هذا العمر. ألم تذوبى مئات المرات بين أحضانى وتقولى لى أحبك يا بهاء . يارجلى . يا حلمى . يا أملى. يا أستاذى . يا معلمى . يا أخى . يا صديقى. يابنى .يا أبى . يا حبيبى ؟ !

انطلقت بجنون الدم وارتطام الحديد بالعظم واللحم باللحم والشىء فى الشىء فجذبته بأقصى طاقتى من لحيته الطويلة . انتقلت بأكملها الى قبضتى ورأيته حليقا يبتسم فى اصفرار . . ورغم هذا كله فعند عودتى من العمل شددت من أزر تغريد وقويت من عزمها حتى تلقاه فى الموعد المضروب والمكان المحدد طبقا لاختياره الخبيث .

ذكرتنى لحيته الزائفة بلحية ابن عمى يوسف الذى تدروش فجأة وارتدت زوجته الحجاب الحديث. فى طفولته عانى من شلل الأطفال ولكنه أنقذ منه فى اللحظات الأخيرة فترك أثرا على خطوته وآخر على سلوكه . كبر يوسف والتحق بعمل جيد فى شركة استثمارية من شركات الانفتاح . فجأة انقلب

الى فيلسوف اسلامى كبير - راسب اعدادية - يفتى بآراء وقورة فى الدين. نصحته بإشارة موحية أن يهتم بشئون بيته أولا قبل أن يهتم بشأن المسلمين والاسلام . لم ينتبه مرارا إلى ما قصدته وعندما يئست من غبائه وجدت نفسى مدفوعا إلى إحاطته علما بسلوك زوجته مؤكدا له على حقيقة الرجل الآخر .

لم أعرف ماذا حدث بينهما بعد ذلك، وكانت بيننا قطيعة . رغم ذلك فقد رأيتها مرارا بصحبة هذا الرجل . لم تعرنى اهتماما ولم تبدى انزعاجا أو دهشة حين التقت نظراتنا مرارا وهى جالسة بجوار الرجل فى عربته المميزة.

عندما استمعنا الى التسجيل معا قلت لتغريد ان الصوت شبيه بصوت يوسف . ضحكت لمعرفتها بطبيعته الهوجاء وحدثتنى عن تسلط زوجته عليه وسيطرتها التامة على عقله الصغير وجسده الضخم .

فى النهاية قلت لها :

- عموما سوف يتضح لنا من هو لحظة اللقاء .

فى نفس اللحظة فهمت ما كان يعنيه ذلك الكائن الذى فتح لى الباب الخشبى العتيق ذى المطرقة :

- لماذا تسمح لنفسك . لماذا تسمح لها ؟ .. تفضل يا صفرى .

أعددت كمينى بدقة . من بعيد وقفت أرقب العدو وقلبى يرتجف . نزل من عربته وراح ينظر حوله فى ارتياب شديد. خيل الى أنه كان يتوقع رؤيتى بل يتمناها . أما المفاجأة فقد كانت فى وجود سهير بالعربة . ربما أرادت أن تقول لى ان زوجتى لا تختلف فى شيء عنها ، فها هى تلتقى بغريب عقب مكالمة هاتفية. وبذلك تكون الأمور قد سويت على خير وجه بما يرضى الله والوطن وأحزاب المعارضة .

فى بداية الأمر كنت واثقا أنه الرجل الآخر . لكنه كان يوسف . لم أصدق عينى. إنه يوسف فما أصعب هذه الدنيا علي فهمى ! .

اختفيت من مكانى على الفور حتى لا يلمحنى يوسف ولا تلمحنى نفسى.

عدت بسرعة الى المنزل أنتظر عودة تغريد والقلق يكاد يمزقنى. لم أنتظر طويلا.. دخلت وقد أخذ بها الانفعال .

– حظنا سيء .

– كيف ؟

– هذا الحمار لا علاقة له بالصوت الحقيقى . كل مافى الأمر أن معاكسته السخيفة جاءت بمحض الصدفة فى هذا التوقيت الحرج .

– وما معنى ان يصطحب معه زوجته ؟

– جاءت لتقول لى «من كان بيته من زجاج»

ندمت لأننى تسرعت بالانسحاب مدفوعا باحساسى بعبثية الموقف. معتوه تحكمه فاجرة يحركنى وزوجتى كقطعتين من الشطرنج ، ولا أفكر فى تأديبه الفورى وإنما أختفى من الميدان يائسا متخاذلا.. والسبب فى هذا كله معاكسة هاتفية . عندما هممت بامساك التليفون حالت تغريد بينى وبينه قائلة فى شماتة .

– لا تفسد فرحتهما بسرعة ، فبعد قليل يكون وقع الصدمة عليهما أقوى وأعنف .

ليس غريبا أن تفكر تغريد بهذه الكيفية . أنا الذى نزلت بها هذا المنحدر. تفضل يا صفرى .. وإن أردت أن تعرف التدين على حقيقته فانظر الى الايشارب الرقيق على رأسها والى العطاء فى طبعها والخشوع فى صلواتها.

إلى هنا كان من الممكن أن أسكت مهما تعالى صوت اناث الضفاع . ولكن لمن أقول ان سهير مازالت تشتهينى حتى لحظة حضورها مع يوسف فى العربة وهى واثقة من حضورى ؟ .. إن قلت فمن يصدقنى وإن صدقنى فما الفائدة وإن كانت هناك فائدة فما معناها وإن كان هناك معنى فليذهب عنى إلى حيث ألقت . تفضل يا معاصر.. ولتبق أسرار الحياة معلقة فى الفضاء الكونى بلا كشف إلى الأبد.. ها هو الهاتف يعلن فى إصرار عن عودة العدو الحقيقى بصوته المميز وبذاءاته المتكررة . وها هى تغريد تواجهك

بحسم لم تعرفه من قبل :

- ليس أمامنا سوى حل واحد .

- ما هو ؟

- أن نبلغ مباحث التليفونات ليراقبوا لنا الخط .

أمام المأزق لا مفر من الانصياع لمثل هذه الفكرة الصائبة حتى لو سقطت تبعاتها على رأسك. هزة واحدة فتجد نفسك فى قاع البئر بلا أمل فى التوبة أو الخلاص من الشعور بالذنب أو التحرر من حالتك الكريهة. حلال محمد حلال الى يوم القيامة. ويكاد المريب يقول خذونى فأنا الرجل الذى ! .

فى القبض على المجرم تكون نهايتك . لن يتورع عن فضحك جملة وتفصيلا حتى يبرر فعلته . لن يتعاطف معك أحد وقد طعنته فى عرضه.. ساعتها يقال لك الكثير. عيب عليك يا رجل. أنت رب أسرة. ألا تستحى. ألا تخاف الله. أبهذه البساطة تنتهك حرمات الناس . ألا تخشى وتختشى على عرضك؟. داين تدان. اليوم لك وغدا عليك. ساعتها تنكس رأسك عن جدارة وأنت تعلم أن معظمهم كاذبون . يسقطون عليك خطاياهم . يصلبونك حيا. تقف صاغرا أمام محكمة وشهود وصحافيين ومتفرجين. تكتب عنك الجرائد فى اليوم التالى فيتندر ياقوت خليل بعدالتك ويشمت فيك حسن بهلول وأسعد ندا. ترى أين لوزه ومنيرة الآن ولماذا أسأل عنهما؟ . أما نيفين ووداد وفوزية فكيف يا ترى سيستقبلن النبأ ؟ . الموقف لا يحتمل التردد أمام تغريد . أتبلغ المباحث وتلقى بنفسك الى التهلكة ؟ .. واذا كان ظهور العدو - عندك - مثل اختفائه فلماذا العناء والأرق ؟ . ليس أمامك إلا الموافقة فالبديل هو السقوط فى البئر .

- فعلا . هذا هو الحل الوحيد .

- ومتى تبلغ ؟

- الآن فورا . سأتوجه الى صديق لى هناك وأشرح له الموضوع .

وغـادرت المنزل، لا إلى الصـديق وإنما لأتمشى على الكورنيش. كـانت لحظات الغروب قاسية، وقد هبت نسمة خريفية آلمتنى. أما المياه والأشجار والطيـور السـابحة فى الفضـاء الحزين فلم تعبـأ بحـالى . كنت أظن أنها تحبنى هى الأخرى كما أحبها فمن أين يجىء العداء . الدنيا والآخرة لن يجتمعان فى قبضة يدك كما لم يجتمعا فى قبضة مخلوق من قبلك. تشعل النيران بيدك وتعجز عن إطفائها . تحضر الجن ولا تستطيع أن تصرفه . تسعى إلى نفسك وتهرب منها .. ويعم الظلام .

عندما عدت حاملا حالتى على طرف أنفى لاحظت البشر على وجهها . تصورت أن الزوج المستقيم قد استجاب الى رغبتها . كان من الطبيعى أن أرثى لها وأشفق على حالها ولكن شيئا من هذا لم يحدث. فقد انصهرت خدعتى لها فى أتون شعورى الجارف بازدحام الحياة وانضغاطها وتساءلت لم لا اكتفى باستخلاص السعادة من الأشياء الصغيرة ولو مرتين كل يوم. عيبى أننى طماع أسعى فى خيبة مكعبة إلى تحويل الشرق والغرب إلى اتجاه واحد لا شمال له ولا جنوب . كأننى أتعمد العمي أمام تغيرات وانقلابات تتوالى أمام عينى حتى فى الطقس والأمطار وايديولوجيات الشعوب واستحالة المشروع الى محظور والمحظور الى مشروع يدعمه القانون. وهل يتساوى شهداء اللينينية - بعد أن تلاشى الاتحاد السوفيتى - بشهداء ٦٧و٧٣ بعد توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل ؟ .. فيم كان هذا العذاب والشىء ينقلب إلى نقيضه ويتغير ويبدأ وينتهى ؟ .. الأجدر بك أن تنهى تلك المهزلة فى التو واللحظة وتكف عن التفتيش فى جداولك السخيفة.. لتكن خدعتك لتغريد هى الصفحة الأخيرة فى كتاب العبث الذى انزلقت إلى قراءته بنهم جهنمى لا معنى لا.. ولو تماديت فى غيك ...

حتى لو كان الخوف هو حافزك الوحيد فلا بأس ، ولكن إياك ولحية يوسف التى انتزعتها فى يدك ، فالأمر مرهون بارتقائك بنفسك أولا وآخرا .

- ١٢ -

مختارا غرقت فى السياسة حتى أذنى. البداية كانت سعادة فائقة بالاستغراق فى شىء خارج عن ذاتى . أما النهاية فكانت مرارة بالغة لإحساسى كمواطن عربى بالدونية والتخلف . وزاد من مرارتى أن هذا الاحساس مرجعه عدو أعرفه جيدا .. يضربنى منذ عام ١٨٤٠ وحتى اليوم بحيث لا تقوم لى قائمة فأظل عبدا تابعا له وليذهب تاريخى إلى الجحيم .

سأل أحد أصدقائى من الأطباء مريضه القروى عن سبب رغبته فى التحليل فقال انه يريد الانجاب . أخرج من جيبه روشته مكرمشة وقدمها له. بدأ صديقى يكتب بيانات مريضه.. سأله عن اسمه فأجاب ثم عن اسم زوجته فسكت. كرر عليه السؤال . كان واضحا أنه لا يعرف الاجابة. واذا بالفلاح يصيح مناديا زوجته ..

- يا بت .. يا بت ..

حضرت زوجته تبتسم فى حياء نصفه طبيعى ونصفه مصطنع وكانت عيناها مثبتتين فى الأرض فسألها زوجها .

- إسمك ايه يابت ؟

قالت اسمها . وقد أقسم لى صديقى عدة مرات أن هذا قد حدث أمام عينيه وهو جالس بكامل وعيه فى معمله. ثم أنه أعطى الفلاح قارورة معقمة وطلب منه اصطحاب زوجته إلى غرفة ملحقة بالمعمل بجوار دورة المياه ليحضر عينة من منيه ويضعها فى القارورة ويغطيها على الفور .

بعد قليل عاد الرجل ومعه زوجته .. رفع الطبيب الغطاء عن القارورة ليجد بداخلها قطعة سوداء متحجرة من البراز تفوح برائحة بشعة .

ولقد لمت صديقى كثيرا لأنه غضب من الفلاح وطرده كما لو كان قد فعل فعلته عن عمد .

وكلما تذكرت هذه الواقعة انتابنى إحساس طاغ بأننى سوف أحاسب يوم القيامة على هذا الفلاح وبؤسه وتعاسته وتخاذل حكامه وذلك لثقتى الشديدة فى أن أعداء الشعب لابد أن يكونوا هم أنفسهم أعداء الحاكم. ولو كان باستطاعتى أن أهرب من جلدى وعظمى ودمى لفعلت .. لو شربت حتى الثمالة فحتما سأفيق فى وقت لاحق . لو تعاطيت الحشيش فغيبوبته موقوته. لو نمت سأستيقظ بعد زمن طال أو قصر .. ماذا أفعل وحاملة الطائرات الأمريكية العملاقة تقف بعيدا فى عرض البحر عند حافة الأفق معترضة حلمى القديم بالجنة. لقد كنت أنوى الاستحمام عاريا قرب الشاطىء لكنى تراجعت. يبدو أنى جبان .. استولت على فكرة مفاجئة . ما هو تعريف العدو؟

غرقت فى أمريكا الصديقة، والدول العربية الشقيقة واسرائيل والكيانات الاقتصادية العالمية والبترول والأمية والصهيونية والتطرف الدينى والأصولية والسلفية وانهيار الشيوعية . تجرعت الفقر والاستعمار والتفرقة العنصرية وتجشأت النظام العالمى الجديد والرجل الذى أصبح يحكم العالم والرجل الذى يسبنى فى الهاتف .

من جديد عاودنى ذلك الشعور البغيض بالدونية والتخلف فطارت لحظة السعادة وتحول الاستغراق إلى تشتت فتذكرت فجأة موعدى مع اسماعيل.. ذلك الفلسطينى الثرى الغيور .

لو يعرف هذا الأحمق أن ما بينى وبين أمنية لا يتجاوز كلمات كتبت على الورق لما فكر فى أن يعادينى . لو يعرف أننى لم أخط خطوة واحدة من

جانبى تجاهها وانما هى التى سقطت فوق أم رأسى، قذيقة حارقة أطلقت على من المجهول فألهبت كيانى رغم أنفى، لما فكر فى ذلك الفعل المتسم بالغدر والكراهية .. وآه من تلك الكلمات المسمومة التى غزت قاموس ألفاظى وما كان أغنائى عن استعمالها لو لم أطلع صديقا أو صديقين على بعض من أسرار عالمى الخفى.. لابد أن أحدهما قد باح بما علم حتى وصل سرى الى العدو من الصديق.. فما السر وما الصديق ؟

من بهاء الي امنية

.. فرحت برسالتك المتوهجة بأحلام الشباب والوجدان المتعطش للحياة والعقل النهم الى المعرفة رغم عناد الغيب والايام . كم كانت فرحتى محلقة بتلك الصور الفوتوغرافية التى جمعتنا ممسكة بتلابيب الزمان للحظات لاتنسى من سنوات العمر الماضية والاتية

... ولسوف أترك مسألة الفصل بين العقل والعاطفة لأحدثك قليلا عن لحظة الوداع حين فاجأنى اسماعيل بقوله مذعورا :

- لا تبوّسها يا أخى.. عندنا ما بيبوسوا السيدات فى الطريق .

والحق أننى كنت أنوى أن أبوّسك بشفتين عاشتا أكثر من عمرى فى انتظار تلك اللحظة النادرة التى قد لا يجود الزمان بها مرة أخرى والتى يتكثف فيها العمر كله لتلتقى بشفتيك النديتين وتنصهران معهما فى عذوبة أعوامك الثلاثة والعشرين . فهل كانت محبوبتى ترغب أو تنتظر منى أن أبوّسها ؟

.. السر الحقيقى هو الذى لا يفارق الصدر فلا يسر به الى أحد. هكذا تعلمت بعد فوت الأوان . وماالقول في رجل مفضوح يقول أى شيء لأى شخص فى أى وقت وهو فى كامل قواه الذهنية ؟

.. ها هى النتيجة ، فاشرب يا بهاء يا بن كامل ..

من أمنية الي بهاء

أمزج الراح بدمي علني أسكر ... أحفر على بياض العينين بمخرز وأدفن أغنيتي في سوادهما. يلفحني الصمت الأبدى .. تتآكل بسمتي المهزومة. هأنذا ابنى من تلال الهموم مدائن .. أشيد من سخرية القاتل جسر العبور .. فآه .. آه يا ألم الأحلام . كم غصة في العمر تكفى .. وكم ندبة يحتمل هذا الشريان ؟...

وحين أرسم وجهى على جدار الموت..

وأخط علي آخر ذاكرة بكماء أول أسمائي ...

يشب حريق فى طيات الصدر .. وأحمل القلم ..

أتقدم .. أتقدم ..

أتوه فى شموع الليل .. أشرب المداد..

غرست أظافرى بجوارحي وضمدتها بحجر ..

قبلتها بشفاه مملحة.. وضعت بقايا روحى إلى قافلة .. تبحث عمن ابتلعتهم الصحراء ..

.. فالشمس ، مازالت فى أول النهار..

.. «لقد كنت أنتظر وأتمنى . لكنك لم تبادر .. لم تتقدم . لم تقتحم حواجز الخوف والتردد العربية . كنت أتقافز بعينى بين سطورك متعجلة العثور على ما كنت أنتظره .. تسألنى ان كنت أرغب أيها الطفل الذى يدعى حكمة الشيوخ بينما يطفح جلده بالجنون الجميل؟ . وأقول لك أننى كنت أرغب وأرغب وأرغب ، ولن أزيد شيئا غير أن أرجوك أيها العجوز الشاب ألا تحرمنى من حروفك التى أرى فيها صورتك وأسمع منها نبرات صوتك المتحشرج كالحشاشين ، وتغمرنى موسيقاها فى خفة ظلك المحببة إلى قلبى بفيض من الطمأنينة والمسرة والأمان».

... «الواقع من حولى يابهاء - يا أستاذى وصديقى - أبعد من أحلامى

بعد السماء عن الأرض .. واقعى كتل هلامية تدعى بشرا . عقول من العصر الحجرى .. حرام على المطلقة أن تضحك حتى فى مجلس أبيها أو أن تكشف شعرها أمام ابن عمتها .. عيب عليها المعرفة . عليها فقط أن تبقى فى انتظار السيد الجديد لتتزوج منه وتنجب له وتخدمه ولاترى من العالم الخارجى إلا الطرقات التى تؤدى إلى بيت أهله أو أهلها .»

أماالصديق فهو ذلك المخلوق الذى يمكن للمرء أن يتخلى أمامه عن الاحتراس من أى شىء حتى لو كان هذا المخلوق كلبا . طالما رددت مقولتك هذه مدعيا الفصاحة والحصافة أمام الآخرين ، لكنك لم تلتزم بمفهومها فتخليت عن احتراسك أمام الجميع .. خائب أنت يا ربيب الأرامل والمطلقات والعوانس وزوجات المرضى والغائبين . لاتميز العدو من الصديق.. والخلاصة أنك لاتعرف نفسك .

من بهاء إلي أمنية

... «يا زهرتى الجميلة التى تذكرنى بخطأ عمرى القاتل .. لم هذا التشاوم البغيض والسواد القاتم؟ .. وما دمت تقرين بأن الشمس مازالت فى أول النهار، فماذا يقول عجوز مثلى يعانى من جنون حب الحياة وحب جنون الحياة وحياة حب الجنون فى آن واحد ؟ . أكل هذا الجمال يفتقد الأمل فى الحياة .. أكل هذا الشباب يهاجمه اليأس فى مقتل . لماذا يا حلوتى الصغيرة.. لماذا ترسمين وجهك الجميل على جدار الموت وأنت الجديرة بأحلى حياة ، وأحلى حياة جديرة بك . لماذا غرس الأظافر فى الجراح ولماذا القبلات بشفاه مملحة وشفتاك هما أجدر شفتين فى العالم كله برضاب قبلات الحب المسكرة . هل سأظل أسألك لماذا .. أم ماذا؟..

... «لاتجزعى من إلقاء همومك على كتفى مهما بلغ ثقلها ، فذلك مصدر سعادة لى، وتلك مسئولية أعتز بها .. لاتيأسى من رحمة الله فلا الطلاق ولا الفقر ولا الاغتراب بقادر على سحق إرادتك» .

***

عرفته فى دمشق يوم حفل استلامى للجائزة الأولى عن نص مسرحى تقدمت به للمسابقة التى أعدها اتحاد الكتاب العرب . قدمته لى أمنية . الكاتبة الصحافية التى كلفوها بمرافقتى طبقا لبرنامج أدبى حافل باللقاءات والاحتفالات . لم يفارقها اسماعيل لحظة واحدة . عشرة أيام كاملة لم أفكر فيها كأنثى ، وكان هذا فيما حسبت أمرا طبيعيا حتى جاءت لحظة وداعى فى مطار دمشق . خيل إلى اسماعيل أننى أقترب كثيرا عن الحد المسموح به من جسد أمنية وأنا أصافحها ، حين مال فجأة على أذنى يحذرنى من «تبويسها».

«أبوّسها» ؟..

حديثها معى على مدى عشرة أيام كان أعذب وأقوى من القبلات. ما أروعها فى غضبها وثورتها ولعناتها المتواصلة للحكام العرب وسخطها على تخلف شعوبنا واستكانتها واستمرائها للظلم والعبودية .

«أبوّسها»؟..

حتى الأديان لم تسلم من تهكمها اللاذع حيث أرجعت إليها سبب استغفال ملوك البترول وأمرائهم لشعوبهم بجماعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغلق المتاجر وقت الصلاة وضرب المخالفين بالعصا مع ترديد صيحتهم التقليدية للمتبرجات :

– استحى يا امرأة

«يمنعون النساء من السفور وقيادة العربات ويأمرون بقطع يد السارق ورقبة القاتل وجلد الزانى بينما يفعل هؤلاء الملوك والزعماء والأمراء ما يحلو لهم فى كل أرجاء العالم بالمليارات المتدفقة على جيوبهم وكروشهم وذقونهم من باطن الأرض بمحض صدفة قدرية غير مفهومة»..

والذى كان يضاعف من ثورة جنونها أن فتيات الجامعة العربيات كن على اقتناع تام بمزايا إلغاء أمخاخهن قائلات :

- الحكومة معها كل الحق . الحكومة ما تقصر معنا فى شىء.

من أمنية إلي بهاء

... «يا مصر . يا أهرام . ياعبدالحليم حافظ . يا نيل أم كلثوم يا بهاء الدنيا . كم يراودنى الحلم والحنين إليك . كم أجن إلى طائرة تحملنى من هنا لأرى مصر بهاء وبهاء مصر . خطاباتك يا أستاذى وصديقى الحبيب هى اشراقة الفجر بعد ليلة طويلة معتمة . أقرأها مرة وعشرا وعشرين . يا عجوز إنى بشوق إلى قبلتك الحلم التى لم تتحقق .. آه من ابتسامتك التى أوحشتنى كم عشقتها حين تستحيل على وجهك المخربش إلى ضحكات مقهقهة مجلجلة.

أم كلثوم تغنى . كلماتها تنبعث من أعماقى . أسافر معها . أرحل . أرتمى فى أحضان القاهرة أتجول فى شوارعها . أركب حافلة من هناك تأخذنى إلى الاسكندرية . معى عنوان حبيبى . تتوه أقدامى إليه . روحى تسير فى الطريق الصحيح . هذه هى البناية . أصعد . أنا أمام الباب .. أطرق.

لحظات. أشعر أن الزمن قد توقف. سكن كل شىء .. تجمد. لحظات عمرها دهور . تزداد خفقات قلبى . يفتح الباب بهدوء يكاد يقتلنى . وجه أسمر هو السحر يطل من خلفه . لا أنبس بحرف واحد ... هو .

يفتح ذراعيه . أرحل إلى صدره . تأخذنى الرعشة المقدسة إلى آفاق عالم آخر . هناك أقول أشياء كثيرة بغير الكلمات . أبتسم . أبكى . أصرخ . يحلق بى فى فضاء تتراقص حوله كواكب كثيرة فى فيض من الألوان .. ولا أدرى بعدها الا ورئيس التحرير فوق رأسى يقول :

- أين أنت يا أمنية ؟.»

... «اسماعيل يحبنى ويحترمنى لكنه يزعجنى بغيرته الملتهبة. أشعر أننى أكبره بأعوام عديدة .. لاتخاطبنى كتلميذة أرجوك. أنت تقلقنى هكذا ..

شايف كيف».

كعادتها تشرق الشمس كل صباح من نفس الموقع فيدفع ضوؤها بخلق الله - وأنا منهم - إلى الحركة اليومية سعيا وراء البقاء. طوفان من البشر يتحرك بإرادة وبلا إرادة مدفوعا بالحب واللامبالاة والأمل والقهر والعناد وغياب الوعى أو حضوره حتى حافة الموت . وأيا كان الأمر فأشياء كثيرة كشروق الشمس وغروبها وانخراطى فى زمرة خلق الله وهبوب الرياح وسقوط المطر ونقيق اناث الضفادع وهبوب نسمة الخريف الموجعة الحبيبة وتعاقب المواليد والوفيات، كانت جميعها قد حولتنى إلى صفر كبير. غير أن هذه الصفرية لم تخل على إطلاقها من وهج للسعادة يسطع على روحى بين حين وآخر ليرحمنى من قسوة المعرفة وإرهاب الحقيقة وملالة الأيام .. فماذا يعيب علاقة كهذه لاتتجاوز القلم والورق والمداد؟

من بهاء إلي أمنيه

.. «أيتها المجنونة الرائعة . لقد ألقيت بسلاحى استسلاما لطوفانك القادم. هأنا أعلن إدمانى لكلماتك الساحرة . أنتظرها انتظار الطفل لحلمة ثدى أمه يستقى منها الحياة . ماذا فعلت بى يا فاتنة الشام وجميلة جميلاتها .. أم أنه بعد المسافات يضخم الأشياء ويكبرها ويضاعف من حجمها ووزنها؟... لقد أثرت فى حياتى زوبعة من زوبعات جنونى بعد حالة من الزهد والقرف والسكون كنت أعيشها بخيلا على نفسى بالفرحة والأمل. واقفا على قمة الجبل لا لأنعم بجمال الطبيعة وأستمتع بروعتها من فوقه، وإنما لكى أنظر بخوف إلى سفحه البعيد . ما أتعس الحياة بالعقل فهو الموت المحقق .

ألا تأخذين بعضا من عقلى وتعطيننى بعضا من روحك المتفجرة بالحياة المحبة للحب . خذي بعضا منه واسحقى به عدوك . الفقر المجرم . الجبان . خذى بعضا من جموده وتحجره وتعقله وتحسبه وحرصه وأرقامه وجداوله

وامنحى روحى قبسا من روحك تطفئين به ظمأها وتحيلين جفافها إلى جنة تعبق بنسمات الربيع الغائبة . أهلا بك فى مصر ولتسقط بين شفاهنا كل الحواجز . إبعثى إلى بصورة فوتوغرافية لك وأنت واقفة حافية القدمين. أريد أن تعب عيناى تفاصيل أناملك وأصابع قدميك وضحكات أظافرها . أن ألتهم جمالك وأعتصره بكيانى حتى لايغيب لحظة عن ذاكرتى وعليك يا صغيرتى لحظة قدومك باختلاس عقلى ووضعه فى صندوق تغلقينه بمفتاح من فولاذ ثم تخفينه فى آخر الدنيا».

من أمنيه إلي بهاء

«آه من ضحكاتك الطفولية العابثة العجوز الماكرة المنطلقة الجامحة. كم أوحشتنى يا بهاء . أحبك. مشتاقة إلى خبث عينيك البريئتين . القلم والورق والكلمات وكل الأشياء تتواطأ اليوم ضدى، فكن أنت دائما معى ودع روحك ترفرف فوقى ومن حولى فأنا طفلتك المشتاقة إلى ضمة حنان».

... «أعتذر لك بشدة عن تجريدك من لقب أستاذ . ذريعتى أننى أحرر قلمى من رهبته وهو يكتب لك بينما أستحضر بروحى محياك المبهر ، مثلما أستحضر عشقى للخطوط والأخاديد المحفورة فى وجهك الذى لاينسى . ولكنك حقا أستاذى أو قل اننى اتخذت منك هذه الصفة لا لصغر سنى - على العكس فأنا أشعر اننى امرأة هرمة قديمة قدم التاريخ - ولكن لأننى بحاجة متكاملة اليك . هكذا وجدت نفسى منك لحظة أول انفراد بيننا بالحديث فى سورية»..

هى لحظة واحدة خلال الأيام العشرة . لحظة تدخل فى قدس أقداس الأسرار التى لاينبغى أن تتجاوز صدرى إلى مخلوق غيرى. كنت أستمع فيها إلى أمنيه بشغف وهى ثائرة منفعلة ساخطه تسب وتشتم فى حياتنا العفنة وفى أنانية المثقفين العرب وجبنهم وانتهازيتهم. شعرت بأذنى وقد أصابهما صمم مفاجىء بينما تركزت حواسى الخمس فى عينى فقط . أدقق

فى حركة شفتيها ويديها ولمعان عينيها وانبساط معالم وجهها وانقباضه وإشعالها سيجارة من سيجارة وإزاحتها لخصلة شعرها عن عينها اليسرى ووضعها ساقا فوق ساق ثم إنزالها من جديد دون أن تعبأ بكنزها الثمين الذى اختلست منه نظرة لاتمحى من الخيال وهى تميل لالتقاط علبة سجائرها حين سقطت منها على الأرض . فى تلك اللحظة اندفعت الدماء غزيرة إلى نصفى الأسفل وأصبح رأسى خاليا من الدم . لو ضربنى «العدو» بفأس فى رأسى لما سالت منه قطرة دم واحدة .

لو لم أكن أحمل – مضطرا – على كتفى موروثا هائلا من رحيق حضارة الانسان منذ فجر التاريخ ، لما منعتنى قوة من الاندفاع اليها أحضنها وأقبلها وأحملها على ذراعى وأطير بها إلى حيث لايرانا أحد على هذا الكوكب . لكنها لحظة لم تتجاوز كسرا من الثانية . أعترف أنها مرت بى لتسلبنى حواسى الأربع الباقية ثم تعيدها إلى ثانية لأواصل الاستمتاع بحديث أمنية الواعى المثير .

كلما حاورها أحد الجالسين ابتلعته فى سهولة ويسر . أما حين كنت أبادلها الحوار فقد كانت تستمع إلى لا بعينيها وإنما بأدق خلايا شعيراتها العصبية . قلت لنفسى إن هذه البنت الشامية تعشقك يا ولد ، ولوجه الله. فلا أنت متحدث لبق ولا أنت شاب وسيم أو تاجر ثرى . أنت يا «حيا لله» مهندس عادى أو كاتب مجتهد مازال يشترك فى المسابقات الأدبية.. نظرات اسماعيل النارية تقطع علينا طريق الشفرة السرية الذى يصل بيننا فى ود عميق لايدركه غيرنا. نظراته توسل ورجاء وتحذير وتهديد ووعيد.

وتثير أمنية موضوع المسابقات الأدبية التى تتحمس لها وزارة الثقافة السورية فينبرى اسماعيل ساخرا منها مشيدا بالجوائز الباهظة القيمة التى ترصدها وزارة الثقافة والاعلام العراقية للكتاب العرب . أفكر فى التدخل لأقول لهما ان القيمة الفكرية لهذه الجوائز تساوي صفرا مكعبا لقبح ما

ترمز إليه من رضوخ لأصحابها ومخططيها ، ولكنى أوثر السلامة لنفسى كأى مثقف جبان فأصمت . أما اسماعيل فالحق أنه كان شجاعا وهو يتساءل بجرأة عن معنى انتشار تماثيل الزعماء العرب فى الشوارع والميادين والأزقة وعلى قمم المرتفعات الجبلية والزراعية ، تارة بالزى العسكرى وتارة بالزى المدنى وتارة بالزى الشعبى وتارة بزى الحجيج . ثم هتف فجأة بمرارة شديدة :

– عليهم لعنة الله جميعا دنيا وأخرة

حينئذ فكرت فى أولادى بتركيز شديد . تخيلت نفسى داخل زنزانة عربية تجمع بين الأصالة والمعاصرة فى نسق تركيبى منسجم لايعرف التناقض . تتدلى الورود والأغصان من بين فتحات أسلاكها الشائكة وأسوار قضبانها الجميلة، والتهمة هي السب فى ذات الزعيم . أى زعيم .

أنت وحظك يا بطل .. يا اخوانى نحن الكتاب العرب .. ضمير الأمة .. هه . دعونا حتى نتكلم فقط.

– لكنى لم أسب أحدا

– شاركت فى الاستماع ولم تبلغنا بما حدث

هذا الكلام غير مسموح به حتى فى سرك يا روح امك .. «ها» المصرى الخبيث ابن كامب دافيد استطاع أن ينجو بنفسه فى لحظة . ماذا فعل؟ .. سب الزعيم الآخر فحاز رضا أباطرة الزعيم الأول . وقالت أمنية تستفز اسماعيل لسبب لم أتبينه

– ألا تشكر لزعيمنا استضافتكم ببلاده؟

سارعت بانقاذ الموقف حين برزت عينا اسماعيل من محجريهما فقلت

– الزعيم لايستضيفهم ببلاده ، فأرض العرب كلها أرضهم

كنت واثقا أنه سيحفظ لى هذه المجاملة – الكاذبة – ولكنى رأيته يزداد سخطا وحقدا فيصب فى وجهى نظراته النارية الكريهة. فجأة نسيت أولادى

وزنزانتى الوردية الجميلة ووجدت نفسى أقول

– نحن بحاجة إلى رؤساء لا زعماء ، مثلما الحال فى الغرب

ولأول مرة ينفجر اسماعيل فى وجه خطيبته متحديا ثباتها

– بذمتك ودينك هل تحبين واحدا من هؤلاء الزعماء؟

ابتسمت فى ثقة شديدة وهى تقول :

– لا ينبغى أن يكون الحب موضع سؤال فى هذا الأمر . المشكلة أننا جميعا عاجزون عن التأثير فى الشعوب التى تهتف بحياتهم.

خشيت من تصاعد التوتر ، فالحوار الاستفزازى بين سورية وفلسطينى ومصرى وعرب آخرين لابد أن يسفر فى النهاية عن معركة وقطيعة وتبادل اتهامات بالخيانة والعمالة.

لم أجد بديلا عن الافراط فى الشراب حتى وجدت نفسى أصيح والكأس تهتز فى يدى قائلا بنشوة طاغية :

– أنا حضرة صاحب الفخامة سمو أمير البلاد ومليكها المعظم !

وبينما كانت صحبة الكتاب منهمكة فى حوارها الهلامى الساخط على كل ما هو عربى ، إذ بهم يلتزمون الصمت فجأة ، وتعتريهم دهشة جميلة مما قلت، ثم ينفجرون فى ضحك هيستيرى . بينما رأيت نفسى سابحا فى نعيم من الرفاهية تفوح منى رائحة الرخاء. وجهى ضحوك ومعدتى ممتلئة بما لذ وطاب من خيرات الله. دماغى رائقة ومزاجى فوق مستوى الاعتدال بكثير . على موائدى يجلس العظماء وتتناثر النساء كقطع من الماس المتلألى على ثوب أسود . أطير فوق أرض الله الشاسعة وأحط بطائرتى حيثما أشاء . يهرع الأتباع من خلفى – وكلهم منافقون – يجيبون طلباتى قبل أن أنطق بها.

تستقبلنى تلك الشقراء الشمطاء بابتسامة دبلوماسية متقنة أمام بيتها فى داوننج ستريت لتستحلب دنانيرى ودولاراتى وريالاتى فى بنوكها فلا

أمانع ولكن بعد أن أكسر عظامها على فراشى وأجعلها تلهث وتغنج وتلعق وهى تستدعى فى ندم أيام شبابها التى ولت ولن تعود . أتفاوض مع رؤساء العالم المتقدم حول مستقبل بلادى وعلاقتها ببلادهم وتعقد لى المؤتمرات الصحافية وأدلى بتصريحات خطيرة لوكالات الأنباء العالمية عن انتصارات جيوشى الظافرة ومصانعى الثقيلة وأجهزتها الاعلامية المتطورة وعلمائي العظام . وتظهر صورتى فى جرائد الدنيا مبتسما مرة وعابسا مرة ومتأملا مرة أخرى.

– ها المصرى يسكر بسرعة البرق . لقد لعب العرقى برأسه

أنا حضرة صاحب الفخامة سمو أمير البلاد ومليكها المعظم. يستقبلنى فى عواصم الغرب أبناء جاليتى بالتصفيق حاملين صورى فوق رؤسهم حين أغادر عربتى متجها إلى مبنى الأمم المتحدة أو إلى أحد ملاهى النود جيرلز فى شارع ٤٢ بنيويورك.

صاح أحدهم وقد توقف عن الضحك وبدا جادا فيما يقول

– والله معه حق . لماذا بحق السماء يحكمنا إنس مثلنا فيسمونه حضرة صاحب الفخامة والسمو؟

.. رغم سكرى البين فقد كنت ألمح السعادة الزائدة تطفح على وجه أمنيه وهى تنظر إلىّ ضاحكة فى حنان وإعجاب .. وكأنها تستحثنى على المزيد سألتنى – مغالبة ضحكاتها – عن اسم الشاعر الذى قال :

قوت عيالنا هنا ... يهدره جلالة السمسار

فى صالة القمار.....

وكل حقه به .. أن بعير جده .. قد مر قبل غيره

بهذه الآبار.

تماديت فى خبثى وقلت لها لا أذكر ، وما هى مبررات فخامته ولماذا يقتصر السمو عليه وحده دون غيره من العباد . وحتى متى تطرب أذناك

ويخاف قلبك . وان كنت قد نسيت الانذار فأى كارثة تحيق بك يا من تسبق اسمه الملكى تلك الصفات البهلوانية .

– رشحناك حاكما للأمة العربية بأسرها يا بهاء . فهل تعدل بيننا؟

بل انى أفضل على حكمكم ساق أم أنور وكنوز أم رجب وما شف عن قميص أم بطرس أيها الأغبياء . ان أعباء الحاكم العادل فوق مستوى طاقتى وقدراتى وسبحان العاطى الوهاب بغير حساب، فالملل يخترق نخاعى ورغم أننى غالبا ما أستطيع مخالفة فروض الصلاة ثم يقتلنى الندم، الا أننى عاجز عن مخالفة فروض الملل ، فكيف يقول لى هذا الولد ان الله يحبنى حبا شديدا؟ ..

عندما تأكدت من ثقتهم فى غيابى عن الوعى طلبت عودا رأيته معلقا بغرفة جلوس مضيفنا – وكان ناشرا عجوزا خفيف الظل– ولدهشتهم أبدعت فى العزف فتحولت الليلة السياسية الكئيبة إلى ليلة قرمزية راقصة لم أفق من أثرها الا عند صحوى من النوم ظهر اليوم التالى.

كان رنين جرس الباب متواصلا بغير انقطاع . تركنى صديقى نائما فى شقته وذهب إلى عمله . قمت مترنحا أفتح الباب فاذا بها أمامى . واذا بابتسامتها الساحرة تصافح وجهى برقة ونعومة .

– نومة أهل الكهف يا أستاذ بهاء .. شايف كيف؟

أردت أن أجيب على دهشتها بأى كلام فوضعت سبابتها الرقيقة الدقيقة على فمى قائلة

– حط لسانك فى «تمك» وادخل الحمام والبس بسرعة يازلمة

فى الحمام غنيت باللهجة السورية «طالعة من بيت ابوها .. رايحة بيت الجيران» لأسمع ضحكاتها المكتومة بالخارج حين أوقف عن عمد تدفق الماء بين الحين والآخر . وعندما خرجت فى كامل ملابسى تنبهت إلى أننا وحدنا فاعترانى ارتباك غامض رغم حسن نيتى الشديد، ولكنها كانت ثابتة واثقة.

– نحن مدعوان لتناول الغداء عند صديقنا الشاعر حسين حمدان وهو من المعجبين بكتاباتك .

– لكن الساعة الآن الواحدة

– لنشرب معا فنجانين من القهوة

لست أذكر ما الذى قادنا إلى الحديث عن الفقر فى تلك الخلوة التى لايجود الزمان بمثلها الا نادرا . تكرهه أمينة كراهية لاحدود لها وترى فيه العائق الوحيد دون طموحاتها الجهنمية .. ساعتها خيل الى اننى فهمت سر اختيارها لاسماعيل . مرحلة لا أكثر. تعوض بها رحلة الفقر الأولى . أخوتها وأخواتها كثيرون وهى التى تعولهم منذ وفاة أبيها . اسماعيل ينفق بغير حساب . أتكون أمنيه ، هذه الرقيقة الحانية مخلوقة انتهازية هى الأخرى تستغل افتنان الرجل بها لتحل مشكلتها الاقتصادية ولاتوليه من قلبها أدنى اهتمام؟

فى لحظة صمت متسائل أدركت أمنية ما يجول بخاطرى ، فألمحت لى بواقعية جارحة – فاجأتنى – عن أحقيتها فى الاستفادة من ماله بدلا من أن ينفقه فى أوروبا على الخمر والنساء ، فالمال مال عربى وشعبه أحق به . وفى النهاية فالمال مال الله ولابأس من إنفاقه فى إطعام المحتاجين.

التمست لها العذر فى منطقها – كعادتى مع الخلق أجمعين – متغاضيا فى وقار شديد عن مواقفها المتناقضة تجاه الدين وعن شعورى تجاه نفسى بالنفاق والانحطاط ..

***

أبلغتنى أمنيه فى آخر رسائلها ان اسماعيل قادم لتجارة عابرة بمصر ورجتنى أن ألتقى به وأن أحسن معاملته وأقدم له ما ينبغى من عون، حتى يعود إليها بانطباع طيب عنى . وبغير أن أفهم أهمية عودته اليها بهذا الانطباع دعوته لتناول العشاء بأحد المطاعم المطلة على الشاطىء. التهمنا

كمية من الطعام تكفى لأربعة أشخاص . حاول فى استماتة أن يدفع فاتورة الحساب ولكنى رفضت بشدة تحت وطأة من يشعر بالذنب وهو يجالس صديقا بينما يطارح خطيبته الغرام فى رسائل صبيانية طائشة .

سألنى اسماعيل وهو يشعل سيجارة وعيناه تتابعان أمواج البحر المتلاحقة :

– ما رأيك بأحداث الخليج؟ أرأيت صمود الجيش العراقى الباسل؟

ألزمتنى حيرتى الصمت فأنا أعلم أنه يقدس حاكم العراق. كنت أسائل نفسى فى حسرة منذ متى كان لعربى رأى فيما يحدث بوطنه ، فلا استشار صدام شعبه فى ابتلاع الكويت تمهيدا لتحقيق الوحدة العربية الاجبارية ، ولا استشار مبارك شعبه قبل إرسال جيش هذا الشعب إلى الخليج .

– الحق يا أخ اسماعيل ان الحديث فى السياسة أصبح يصيبنى بالاكتئاب.

أى صمود أيها المعتوه وقد دمر أعداؤنا الحقيقيون نصف الأمة العربية بموافقة نصفها الآخر .

وكيف تسبنى فى الهاتف وأنت لاتعلم شيئا عن مراسلاتى مع أمنيه، ولماذا لا أقطع الشك باليقين دون انتظار؟....

– متى وصلت إلى القاهرة؟

– منذ أسبوع

أيكون هو ، وقد أتقن تقليد اللهجة المصرية المميزة؟

– والى الاسكندرية

– بالأمس كما تعلم

أيكون هو ؟ . فلتطرق الحديد وهو محمر .

– ولماذا تكرهنى ياسيد إسماعيل ؟

– عفوا . ماذا تقول ؟

أعدت السؤال فأجاب بريبة شديدة .

- والله ياشيخ أنا ماكرهتك أبدا . لم هذا السؤال الغريب ؟

- أنت تعرف جيدا ماذا قلت لزوجتى فى الهاتف .

- زوجتك ؟ مالى بزوجتك يا أخى ؟ ماذا جرى لك يا أستاذ بهاء ؟ أنا لا أفهمك .

الخريف قادم لا محالة يعقبه الشتاء . وسوف تكف الضفادع عن النقيق ولن تسمع سوى نعيق البوم .

وبعده سوف يسود الصمت . قام إسماعيل فزعا وهو يشك فى سلامة عقلى . لم أره مرة أخرى ولم أسمع عنه شيئا حتى وافتنى أمنية برسالة مختصرة تهاجمنى فيها على غرابة سلوكى تجاه خطيبها الذى وصفنى بالجنون . وببساطة مذهلة طلبت منى ألا أكتب إليها مرة أخرى : وكنت قد توقفت بالفعل عن الكتابة إليها .. لكنه كبرياء الأنثى !.. وكل ما كان بيننا مجرد كلمات على ورق !

فى المنزل قدمت لى تغريد قائمة بأسماء من اتصلوا بى فى غيابى . سألتها مترددا :

- ألم يعد يتصل ؟

قالت فى دهشة :

- من ؟

- العدو .

- أى عدو ؟ .. هل أنت فى حرب مع أحد ؟

- ١٣ -

أثار تساؤلها ريبتى ، فما وراء ذلك ياترى ؟.كنت أنتظر أن تسألنى عن سر صمت العدو أو أن تشير إلى الصلة المحتملة بين اختفاء صوته والبلاغ الذى تعتقد أننى تقدمت به إلى مباحث التليفونات . لكنها لم تكتف بتجاهل الأمر تماما ، وإنما أنكرت وقوعه وكأن شيئا لم يكن . كلما انقضى أسبوع وراء أسبوع أعاود السؤال فأسمع منها نفس الاجابة المتسائلة :

- أي عدو ؟.. هل أنت فى حرب مع أحد ؟

لابد أن هناك علاقة بين صمته وتنكرها المفاجىء للحقيقة . لكن أى شيطان على هذه الأرض يدلنى على منطق لتلك العلاقة المريبة . أتكون قد اهتدت إليه وأفشى لها بأسرار عالمى الخاص فلجأت إلى تلك الحيلة الماكرة لتستر فضيحتى وتبقى على حبها جريحا نازفا فى صمت حتى يموت من تلقاء نفسه ؟.. ما أتعس أن يهزمنى الصمت .

أفادت التحاليل المعملية وآراء الأطباء أن الطفح الجلدى الذى انتشر فى جسدها ناتج عن حالة عصبية ، أما الجلد نفسه فقد خلا تماما من شبهة المرض . بكيت لألمها وبقيت ليال بجوارها أربت على كتفها وأقبل جبينها وأتحسس شعرها وأتعجب من نفسى حين أتمنى الموت لقاء أن تشفى ، ولو تماديت فى غيك بعد هذا العمر فلتنتظر عقابا شديدا ، وإلى متى ترجىء التوبة فتفشل فيما نجح فيه نديم دون أن يبذل من طاقته سعرا حراريا واحدا ، وتقبل دعوة «سوزان» لتناول مشروب فى هضبة الهرم .

عرفتها فى حفل أقامه أحد المراكز الثقافية الأجنبية بالقاهرة . من زيها

الأنيق وعربتها الفاخرة وحديثها الرقيق ولغتها الانجليزية المنسابة فى نعومة وثقة ، أيقنت أنها سيدة مجتمع من الطبقة الأولى . أنا لا أعرف كم هو عدد طبقات مجتمعنا ولكن هكذا كان إنطباعى .

فوق الهضبة سقطت الأقنعة وأزيلت الحجب وصارمجتمعنا طبقة واحدة . جلست بجوارها فى العربة . جاء لنا النادل بالمشروبات كما هى العادة مع من لاينزلون من عرباتهم وإنما يبقون بداخلها لممارسة ما يتيسر من الحب فى الظلام الساكن بين الأشجار المنتشرة بالحديقة . لم يعد الحديث رقيقا ولا انسابت اللغة الانجليزية فى نعومة ، وإنما كانت الكلمات والأصوات والهمسات مختلفة تماما ، إذ تبين أنها تصدر عن امرأة جوعانة إلى الحب لحد الموت .

وتأتى عربة صغيرة بها فتى وفتاة لتقف أمامنا مباشرة . وينزل الفتى ليكيل السباب إلى أمه ويشدنى من ذراعى لينزلنى من العربة وهو يصرخ عى الملأ سائلا إياى من أكون وكيف أجلس مكان أبيه بجوار أمه ؟

نجوت من ثورته بأعجوبة وغادرت المكان متأملا عشرات العربات المتناثرة فى أركان الحديقة وقد أطفئت أنوارها وغرقت فى ظلام الحب المسروق . فى تلك الليلة شعرت تجاه نفسى باحتقار شديد ، فريد فى نوعه.

عدت إلى الفندق منهارا أبكى على تغريد حينا وعلى نفسى حينا آخر . أخفت عنى سيدة المجتمع ظروفها العائلية بمهارة فائقة . لم أكن أعرف أنها متزوجة وأنها على خلاف مع زوجها وأبنائها . صورت لى سذاجتى أننى أجالس امرأة من زيورخ فى حديقة بكوبنهاجن ، فما جنيت إلا الإهانة والتحقير . حمدت الله أن الأمر لم يتجاوز هذا الحد ، فالولد لم يعرف عنى شيئا ، وسوزان ذكرت له اسما مخالفا لإسمى وعملا لا علاقة له بعملى .

ها هو فاروق يفض شركته معى ويتأهب للهجرة النهائية من البلاد ، فمفهومه للوطنية يتعارض بشدة مع بقائه بالوطن . اذا أردت الإبقاء على

المكتب فلتخلص له ولكنك لن تستطيع مادام العدو قد اختفى أو مات أو كان وجوده وهما تسلط على خيالك المريض .

لم يغمض لى جفن حتى الصباح ، فقد كانت الضربتان قويتان . إنكمشت فى مكانى فصرت نقطة لا حجم لها ولا حتى مساحة . لم أصل إلى قرار بشأن إغلاق المكتب ولا بشأن العدو أو التوبة .

بعد دقائق من جلوسى إلى مكتبى بالمؤسسة رأيت شاب الترام الغامض واقفا أمامى بابتسامته الساخرة الواثقة وكأنه يذكرنى بانذاره الجهنمى ومقولته التى لم تفارق سمعى «ان الله يحبنى حبا شديدا» . ما أن استوعبت فكرة وجوده غير المعقولة حتى اختفى من أمامى وكأنه تبخر فى الهواء . قلت ان إعصابى المنهكة لتوالى الضربات وقلة النوم هى التى هيأت لى ما كان . ولم تمض دقائق معدودة حتى جاء من يخبرنى أن رئيس المؤسسة يستدعينى لأمر هام .

فى أدب جم أخبرنى أن المؤسسة - بعد التعديلات الجديدة - لم تعد بحاجة إلى خدماتى وأنه من الأكرم لى أن أسوى معاشى وأنصرف وإلا تعرضت لموقف يسىء إلى كرامتى كأن أقبل بالعمل فى وظيفة أدنى من وظيفتى الحالية أو أن أنقل إلى فرع من فروع المؤسسة النائية . ضربة جديدة.

... وكأنها لم تسمع بنفسها صوت مخلوق يسبنى وينعتنى بأحط الصفات . لم أجد تفسيرا لموقفها ولم أصل إلى قرار فى أى شىء .. وقال لى «إذا جعلت الله فى قلبك والدنيا على كفك فلن يكون لك عدو ماحييت» .

- ١٤ -

فقدت الكثير . لكن عندما فقدت محمود كامل أصبحت أستهين بفقد أى شيء فى حياتى . كان يصحبنى فى طفولتى إلى مكتبة البلدية حيث يعمل . يدربنى على مراسيم الجلوس على مقعد والامساك بكتاب لقراءته باحترام ومحبة . لوحاته المائية التى رسمها بيده الحنون مازالت معلقة بمنزلى تتنفس حياتها من هواء غرفه . كان لأولاده نعم الأب ، أما لى فكان أعز الأصدقاء .

ويوما قال لى انه سعيد بأن صنع منى إنسانا أفضل منه ولكنه كان واهما .

الخيانة ....

قلت له إننى لن أجد على وجه الأرض من يفضله عندى حتى أموت .

ضحك قائلا فى ثقة :

- لكل إنسان نقائصه .. أو على الأقل نقيصته .
- فما هى نقيصتك ؟
- أفكر فى خيانة أمك بعد هذا العمر .
- أنت ؟ .. كيف ؟
- أريد الزواج من كاترين .
- لماذا ؟
- لأنى بحاجة إليها مثلما هى بحاجة إلىّ .
- يقينى أنك سعيد مع أمى .

-أريد المزيد من السعادة ومن مصدر جديد .

- لقد تجاوزت الخمسين يادون جوان الثمانينيات ولم أعهد فيك الأنانية يوما .

- إنى أهيم عشقا بالحياة ولا حيلة لى فى مقاومة هذا العشق .

عندما كثر ترددها على المكتبة لدراسة الآثار المصرية تعددت لقاءاتهما الفكرية المثيرة . صرحت له بحبها وقالت إنها لاتطمع في أكثر من صداقته ولا ترغب فى تدمير أسرته وأن قلبها ومالها ملك له بلا مقابل متى أراد أن يحقق لها أقصى درجات السعادة ..

- لأول مرة لا أفهمك يا أبى .

- لوصح هذا لتراجعت على الفور عن قرارى . أنا لا أحب الحرام .

- وأمى ؟

- لا ينبغى أن تعلم .

الخيانة ....

شهدت عقد قرانهما . كنت أزورهما أحيانا فى سكنهما الخاص وأسعد بالبقاء بينهما متأملا فى نقيصة أبى سطوة القدر ، وعشت خائنا لأمى مدى الحياة .. فمتى ينتهى سفرك الطويل الغامض ؟.

إنتهى عهد المصالحة ولابد أن تنقلب الطاقة الكامنة إلى طاقة حركية طبقا لقانون السقوط . هيا اكشفى عن وجهك اللعين أيتها الأوراق القبيحة. إدفعى بثمارك المرة إلى أفواه من عاصروك فعاشوا أيامك فى صمت وذلة . وهاهى موجات بشرية متلاحقة من شباب ١٩٩١ يملأون الشوارع عقب أذان الفجر يهرولون صائحين فى حالة من الهياج الغريب ، فلا هو بصياح الغضب أو البهجة وإنما هو ضرب من الجنون .. «بالأمس طالب أحدهم بإعدام كل من تجاوز الأربعين فى هذا الوطن» .. ينطلقون بدراجاتهم البخارية وتجرى معهم كلاب وقطط مسعورة تتقافز على بطونها وظهورها

ويكثر التصادم بين الراكبين والمترجلين والكلاب والقطط . أما الناجون فينظرون إلى القتلى إما فى شماتة وإما فى بلادة ولامبالاة ، وكأنما اعتادوا العيش فى أحضان هذا السعار الرهيب .. وأنا أجرى فزعا باحثا عن نفسى فقد هربت منى حين كنت بحاجة إليها وعجزت عن استحضارها وخيل إلى أن كل هؤلاء الشباب أعداء لى ، لو تمكنوا منى لافترسونى تحت دراجاتهم البخارية .

اهتديت إلى بيت قديم متهالك اعتقدت أنه بيتى ولكن بابه كان مواجها لباب بيت آخر ملاصق له بحيث لا أستطيع أن أشعر بخصوصيتى أو أن أمارس حياتى بعيدا عن عيون الآخرين .

وضعت لوحا خشبيا كبيرا بينى وبينهم ونظرت إليهم من ثقب به . كان الظلام دامسا فوجدت عيونا كثيرة تنظر إلى من نفس الثقب فى الجهة المقابلة ، ثم استعانوا بمصباح يدوى كبير تجمعوا حوله وهم ينظرون إلى قائلين لبعضهم البعض :

– هذا هو الذى .

ثم التزموا الصمت . تعجبت من قولهم لأنى لم أعرف ماذا يقصدون . عدت إلى الداخل خائفا فوجدتهم يقتحمون الحاجز ويدخلون ليحيطوا بى فى صمت . رجال ونساء تخلو ملامحهم من لمسة إنسانية . كان من بينهم ذلك الرجل العملاق ذو الشارب الطويل الذى رأيته منذ عشر أعوام ينهال مع بعض الرجال بعصيهم الغليظة على رأس رجل وظهره وبطنه حتى تكوم على الأرض فى بركة من الدماء بصحراء مصر الجديدة .. وكانوا قد انبثقوا من الأرض الجرداء الساكنة فى جنح الظلام كمخلوقات نارية.. أما تلك المرأة الطويلة النحيفة ذات معالم الوجه المحايدة فهى التى رأيتها فى طفولتى ومن حولها مجموعة من النساء يحاصرن طفلة صغيرة أمام أمها وقد خلعن لها سروالها وأمسكت المرأة الشيطانية بشفرة حادة لتقطع بظر الطفلة وسط

صياح بقية النسوة قائلات :

– جورى يابت جورى .

وكلما جارت الشيطانة المحايدة بسلاحها طمعا فى إرضائهن صرخت الطفلة حتي استؤصلت حساسيتها تماما فانطلقت الدماء والزغاريد .

توقعت أن ينهالوا على ضربا بالعصى ولكنهم أخذوا يقتربون منى وأبتعد. يقتربون وأبتعد . حتى تمكنت من الافلات منهم مسرعا نحو الخارج . وجدت أمي واقفة بانتظارى . غاضبة من خيانتى . رغم ذلك فقد رمتهم بنظرة غريبة ألقت فى قلوبهم الرعب وجعلتهم يتفرقون بعيدا عنى . اصطحبتنى أمي إلى الخارج دونما كلمة واحدة وتركتنى فجأة فى منتصف الطريق وبيدى طفلى الصغير حيث توجهت مسرعة إلى منزل آخر وأغلقت دونها الباب قائلة أنها سوف ترانى قريبا فى القدس .

جريت بطفلى نبحث معا عن الطريق الرئيسى الذى يبعدنا عن شارع الثمار المرة بينما كانت الأوراق اللعينة تطاردنى بفحيح مخيف . اعتصرنى الحزن واستبد بى الخوف والألم ، وتساءلت متى تعود البهجة ؟

أخذت كاترين أبى ورحلا وأغلب ظنى أنه لن يعود . أحببت كاترين وكرهتها . رأيتها وتكلمت معها ولم أرها ولم يخاطبها لسانى . دووووم . ڤيووووو . تك تك تك . ڤيووووو . طاخ . وما جدوى العبارة طالما كانت الحصيلة عقل عاجز وفهم قاصر . رحل محمود كامل وانتهت اللعبة فاللعنة على الراحلين والوافدين جميعا حين تتساوى الإضافة بالخصم ويتربع الصفر على عرش الأشياء . وماذا يعنى لو لم يبق محمود كامل أو بقى ليشاركنى هذا الوجود المتعنت الذى غدوت أتناوب فيه مع بقية الموجودات أحاسيس متوترة من التقزز والاستفزاز المتبادل فى صمت قاتل يعشش الحزن فى أرضه ويرفرف الخوف على سمائه الملبدة بغيوم الغيب . ما الفرق بين البقاء والفناء مادامت أوراقى خاضعة – ها ها – لقرارات عبد مثلى

ورغباته وأهوائه .

رحل تاركا أمى فى مواجهة مهزلة كبرى عنوان أحداثها : « المتفرج» . ذلك التعس الذى لا يجيد فى حياته شيئا قدر إجادته الفرجة عليها . الأم فى مواجهة أبنائها وأحفادها أمام متفرج تعادلت عنده أى كفتين ، فالنار بداخله يطفؤها ماؤه، وشعوره بأى شىء ينسفه الشعور بالشىء الآخر .

تبكى الفراق وهى لا تدرى أنه خيانة . لو أدركت الحقيقة لبكت أيضا بنفس الدموع ولظللت أتفرج ، فماذا بيدى أن أفعل غير الفرجة ؟ .. غير أنى أشفقت عليها فدعوتها للإقامة معى وكأنى أصر بلا وعى على أن أشاركها وحدى أعباء الرحيل والدموع بغير مساهمة من أخوتى الأربعة .

شقيقة ماتت ولم تشارك . لو عاشت لاختلف الأمر كثيرا إذ أنها كانت تتجاوز الفرجة إلى الفعل الطيب والموقف القوى والرأى السديد، كشأن أى مخلوق سعيد محدود الرؤية .

شقيقة أخرى عاشت ولكنها تسكن بعيدا فى الفضاء . لا تعرف غير الرسل والملائكة والأنبياء والتعبد والصلاة لله . حتى الفرجة لا تعنيها فى شىء . ولهذا فإنها هى الأخرى لم تشارك بشىء .

فاروق هارب مع زوج وداد . يبحثان فى باطن الأرض عن ذلك السائل الأسود اللزج البغيض . لا يشارك إلا بثمن طوابع البريد أو المكالمات الهاتفية ليسأل عن صحة أمه ثم يسألنى بسرعة البرق فى نهاية المكالمة إن كنت أريد شيئا وهو يعلم تماما أننى حتى لو كنت أريد فإننى لا أريد ، لأنى لم أعد انتظر مجرد خلجة تعاطف من مخلوق، ففضاء الكون لا نهاية له وما اشتد طين بغير النار .

أما الشقيق الرابع فلا يختلف فى شئ عن الأميبا ذات الخلية الواحدة التى تستطيع أن تنقسم إلى ملايين الخلايا وتتلون بألوان الطيف وتعيش على غيرها فى كل الظروف، وأنا لم أنس حتى الآن مشهد مخارج الحروف

من فم مدرس الأحياء الذى كان يعرفها لنا بقوله إنها « كتلة طفيلية هلامية چيلاتينية رجراجة »مع تضـخيمه وتفخيمه وتطويله لحرف الألف بطريقة مازالت تثير فى نفسى الضحك والقرف معا حتى الآن .

وبحكم وحدة المكان كان لابد لتغريد وأولادها أن يدفعوا معى . أما تغريد فلم تمانع فى حدود قدراتها ولا لوم عليها فى ذلك ، وأما الأولاد فقد رفضوا رفضا تاما . ولهذا كنت واثقا - من موقع المتفرج - أننى حين أصير إلى شيخ متهالك كأمى فإننى لن ألقى منهم أيضا سوى الرفض . أما تلك الثقة فمازال مصدرها مجهولا ، وقد فاتنى أن أذكر هذا النوع من العداء لأبنائى الطلبة رغم أننى لم أعمل بالتدريس يوما واحدا فى أى مكان..

غير أننى فى محاولة يائسة كى أتجاوز مكان المتفرج استدعيت يوما أولادى الثلاثة وقرأت عليهم «بسم الله الرحمن الرحيم . وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . صدق الله العظيم» .

ثم إننى لم أكتف بقراءة تلك الآيات الكريمة وإنما كتبتها من ثلاث نسخ أعطيت لكل منهم نسخة وطالبتهم بحفظها وحددت لهم موعدا لتسميعها ، لكنى لم أستكمل خطتى إذ عدت دون أن أدرى وبتدرج غير محسوس إلى موقع المتفرج .

ولقد فكرت طويلا فى مغزى ما فعلت . هل هو رغبة صادقة منى فى تبديد ذلك الرفض الحاسم بعيون أولادى تجاه وجود أمى التى بدت أمامهم ككائن غريب جاء يفرض وجوده الماضى المتآكل على حياتهم القادمة ؟ . لقد رأيت فى رفضهم لوجودها بينهم رفض الحياة للموت ، وفى فزعى من هذا

الرفض خوف الحاضر من المستقبل ، وبلغ الصراع فى نخاعى ذروته بين الأزمنة الثلاثة فلم أصل إلى شىء وعدت ثانية إلى موقع المتفرج .

فكرت طويلا فى مغزى ما فعلت ..

هل كان الدافع حبا للفضيلة كامنا فى قلب رجل غير فاضل لا يتمنى لأبنائه أن يشبوا على شاكلته وقد استسلم لليأس من حالته ؟ . لقد وضعت نفسى كثيرا موضع أمى فكان الخوف يزلزلنى ثم لا ألبث أن أعود إلى موقعى الصفرى .

قعيدة الفراش تقتلها الوحدة . تتمنى الموت لكنها تتشبث بالحياة . يتجاهل الأولاد نداءاتها فى معظم الأحيان . يزعجهم صوت الراديو الذى ثبتت مؤشره ليل نهار على محطة القرآن . لو طلب أحدهم أن تخفض من صوته حتى يستطيع المذاكرة فإنها تغضب وتطفئه على الفور قائلة أن البيت الذى يخلو من القرآن يخلو من البركة وتسكنه العفاريت . لو أقنعتها بهدوء الجبال الرواسى أننا لا نرفض الاستماع إلى القرآن الكريم وإنما نريد أن نستمع إلى الموسيقا فى بعض الأحيان ، أو نريد أن نعيش فى حالة دنيوية لبعض الوقت فإنها تسارع فى دهاء طفولى مخيف بمطالبتى بشىء ما .. مثل إخراج كفنها من حقيبته ونشره فى الهواء حتى لا يتعطن ، أو إحضار الهاتف لمكالمة إحدى قريباتها - وهى حين تتحدث فى الهاتف لا تتوقف إلا بمعجزة - أو أن تسألنى عن مكان اختفاء صدام حسين أثناء حرب الخليج وقبل أن أجيبها بأننى لست أعرف تسارع بالبكاء والدعاء من القلب لواحد من أحفادها بالعودة سالما من هناك قائلة :

- يارب انقذ النصارى والمسلمين ومعهم ابن بنتى من الموت فى الصحراء.

اختل نظام البيت بهجوم الزوار من الأسرة فى أى وقت لتحية أمى . تحول البيت إلى طريق عام يسلكه الغادى والرائح فى أى وقت يشاء . أتأمل

حتى باطن الأرض فى كيفية تفكير هؤلاء الآدميين الذين أنتمى إليهم والدهشة تأخذنى والغيظ يأكلنى . كيف يحق لهم أن يقتحموا زمانى ومكانى بغير استئذان ، وما معنى الوقت عندهم وما دلالته . لا أستطيع أن أجزم بأننى أعرف ، فبعضهم يفعل ذلك دون فهم وإدراك مدفوعا بعاطفته تجاه أمى ، لاغيا وجودى بحسن نية كريه قاتل .. والبعض الآخر يعلم أنه معتد على حقى فى الوقت والمكان ولكنه يتلذذ بتعذيبى الذى لا أظهره ، والذى كلما كتمته ازداد تلذذه ، وكأنما جاء يبادرنى بالعداء انتقاما منى لجرأتى – دونا عنهم – على انتشال أمى من وحدتها .

وقد تناثر يوما رذاذ كلمات فى محيط الأسرة تقول بفكرة ملجأ العجزة فزموا شفاههم، وتحدثوا عن العيب والحرام بكثافة مذهلة ، لكن أحدا منهم لم يجروء أن يفكر فى دعوتها لمشاركته المعيشة فى بيته . ولقد اعتدت أن أرى المعطاء عندنا يلام ويعنف بقسوة لأقل هفوة ، بينما ينجو المقتر بنفسه متفرغا للنقد وإصدار الأحكام والتوجيهات والنصائح ، فهل أنا حقا متفرج أم أننى أظلم نفسى كعادتى لسبب لست أعرفه ؟ .. فمن يكون العدو بين الأولاد والزوجة والأشقاء والأقارب ولماذا أكافأ بالغدر والوضاعة ، أم أنها كاترين وقد لبسها عدوى الشيطانى الذى سمعت صوته بأذنى فى الهاتف رغم إنكار تغريد .

.. من يكون ؟؟ .

لم يكن هناك بد من إيجاد حالة من التعايش بين الماضى والحاضر . لهذا كان لابد من قرارات ، وما أتعس معنى اتخاذ قرار فى أى شىء مهما بلغت تفاهته .

حددت يوما معينا وساعة محددة لزيارات الأهل والأقارب بحيث لا يفجئنى أحد باقتحام حياتى وقت أن يريد . أظهروا أمامى موافقتهم فأنا «حبيب الكل» ومن ورائى كان السخط والاحتقار وكان نعتى بالغرور والكبر.

وإنكار صلة الرحم . ملايين الكلمات أطلقت ككلاب مسعورة تنهش فى مخى وخلاياى العصبية .

ثارت أمى فى البداية ثم ما لبثت أن استسلمت لقرارى «بعزلها» فى انكسار آلمنى ، فأى حق اجرامى وضيع يسمح لى أن أدمر كبرياء أمى وعزتها ؟ .. كنت أسمعها فى الليل تنادى كيانات مجهولة وتطلب من الله الموت فازداد ألمى واكتئابى . عدوها هو حبيبها محمود كامل ولكنها لا تدرى . طلبت منى أن تعود إلى بيتها لتنقذ روحها من سجن الغرفة المنفردة والزيارات المحظورة والأوامر الصارمة والنظم الدقيقة . تريد التحدث مع الجيران والتجول فى الشقة واستقبال الزوار ومشاهدة التليفزيون والاستماع إلى الراديو وفتح ثلاجتها الخاصة وصوان ملابسها .

أجبتها إلى طلبها وأعدتها إلى بيتها ، فاتفق الأهل على إننى نذل عن جدارة واستحقاق. لابد أن أوضح لأبنائى الطلبة هذا النوع الفريد من العداء المر .

نذل لأننى ألقيت بأمى فى أتون وحدتها بقرار منى دون الرجوع إليهم وإلا لأنقذوها - برحمتهم الواسعة - من براثنى . أما حقيقة النذالة كما أعرفها - ويعرفونها هم أيضا - فهى أننى حين كنت وحدى من دعاها للمعيشة معه انكمشوا أمامى وأمامها وغرقوا فى عرقهم وبولهم ، وهى أيضا أننى سوف أضطرهم بعد عودتها إلى بيتها أن يشاركوا بقدر من الفعل لا الكلام ، وأن يتكبدوا للوصول إلى بيتها البعيد فى كل زيارة معاناة سفر طويل ينفقون فيه المال والوقت والجهد .

هناك نذالة أخرى لا يرتقى إلى معاناة الشعور بها أحد سواى . تلك التى اعتصرتنى بعد أن جف ينبوع الحنان الالهى فى غرفة مكتبى - حيث كانت تقيم أمى - فلم يبق بها إلا كتبى وأوراقى وآلاتى الموسيقية . نذالة الشعور بالراحة وقد عدت إلى مملكتى أتنفس بحرية . أقرأ وأكتب وأعزف

وأستمع إلى الموسيقا وحدى دون أن يشاركنى المكان إنس أو جان . دون أن تختلط بأنفاسى أى أنفاس . سمكة سحبها صياد إلى البر ثم فى غفلة منه تمكنت من القفز إلى البحر مرة أخرى . فهل يحق لى أن أكون نذلا كى أنعم بحريتى ؟ .. هل كانت استجابتى العاجلة لإطلاق أمى من سجنها نزولا على رغبتها فحسب ، أم أننى كنت أستجيب لرغبتى وحدى فى الإنطلاق من سجنى وراء قضبان الماضى ؟ .. ومادام العداء حتميا يا أبنائى وبناتى فى مصر ويا إخوتى وأخواتى فى المريخ فلا مفر من أن يدرب المرء نفسه على الحياة فى ظله تدريبا شاقا مادام مصرا على الوجود .. ولكن من يكون ؟ .

* * *

- ١٥ -

أبلغنى السكرتير بقائمة الأسماء التى اتصلت بى خلال أوقات توجهى إلى مكتب رئيس المؤسسة وعند مرورى على الإدارات التابعة لى وتوجهى إلى دورة المياه واتصالى بالأجاويد وإلقائى المحاضرات على أبنائى الطلبة . لم أعرف لماذا لم يبلغنى عن كل منهما فى حينه ، ولم أسأله . تغريد . سهير . فوزية . وداد . نيڤين .

لم أهتد إلى وسيلة للتفكير فى ذلك اللغز الجديد غير أن أنتظر أياما أخرى لأرى ما يستجد حتى أتخذ قرارى النهائى بشأن موقفى من المؤسسة . تكررت الاتصالات نفسها مرة ثانية وثالثة . ما أن أغادر مكتبى حتى تتصل إحداهن وتترك اسمها لدى السكرتير ولا تزيد عن ذلك كلمة واحدة .

سألت نيفين متعجبا عن سر اتصالها بى فى المؤسسة وقد انتهى ما بيننا من جنون فأنكرت بشدة . لا مبرر إذن للاتصال بالأخريات وإثارة مزيد من الظنون والتوقعات وقد ابتعدت عنهن تماما لشدة خوفى من الإنذار المرتقب . أى عدو ؟ .. هل أنت فى حرب مع أحد ؟ . أنا واثق أنها لن تسكت ، فصمتها نذير كارثة جديدة مقبلة ، تدعى الطمأنينة والحقيقة أنها تناورنى حتى أقع فى كمينها المميت . ولكن من أين لها بهذه المعلومات لو كانت قد استندت إليها ؟ أيكون ذلك الشاب صاحب الإنذار ؟

طلبته على الهاتف ودعانى للحضور على الفور . فى لمح البصر كنت واقفا أمام بيته . قال لى الحارس :

- إنه فى الأردن ، يعود ابنه العبيط فى إحدى المصحات العقلية .

ضحك الحارس ساخرا حين أكدت له أننى كنت أخاطبه منذ دقائق على الهاتف . ظن أننى أتعاطى مواد مغيبة. أبعدنى عن البيت بإشفاق .. والله ليس هناك من هو أعبط منك يا بهاء . لم لا تواجهها ؟

- أنا لم أتصل بك فى المؤسسة منذ شهور .

كان الطفح قد ذهب إلى حال سبيله وعاد جلدها ناعما رقيقا .

- أواثقة أنت من ذلك ؟

- ماذا جرى لك يا بهاء ؟

هل تواجهها بالأسماء التى اتصلت بك . وكيف تبرر لها صلاتك بهن ؟ أتفتح على نفسك باب الجحيم ؟

لماذا لا تتوضأ وتصلى لله ركعتين ؟

عندما توجهت إلى غرفتى بالمكتب الاستشارى سألتنى ماجدة عن مصيرها وقد هاجر فاروق . لم أستطع اجابتها فكل شيئ مؤجل عدا الشهيق والزفير . سلمتنى ورقة تحمل قائمة بأسماء من اتصلوا بى أثناء تغيبى عن المكتب خلال اليومين الأخيرين :

ياقوت خليل .. حشمت . فؤاد طبلية . حسن بهلول . أسعد ندا . إسماعيل .

استلقيت مهزوما على أقرب مقعد وقد تقطعت أنفاسى . خيل إلى أن التأجيل سوف يمتد ليشمل الشهيق والزفير فأموت ويغطون جثتى هذه المرة بجريدة قومية ويقولون لعنة الله عليه . هرولت ماجدة تحضر لى كوبا من الماء . تبعتها نيفين وقد استبدت بها الحيرة من أمرى .

انكشف الملعوب ولم ينكشف . منذ متى يتصل بك الموتى والمساجين ؟ .. لو خلت القائمة من حشمت وبهلول لهان الأمر . انتبه . أنت فى خطر .

***

جمعت أعضائى لأجلس فى ركن الشرفة البحرية وقد استغرقتنى فكرة

عبرت بخيالى كبرقة خاطفة . أهلا يا ربيب ..... صور لى تعطشى إلى فهم حالتى أن تلك الفكرة العبقرية قد جاءت تحمل لى الخلاص .

منذ عدة سنوات كانت الشرفة تطل من أسفلها على حديقة صغيرة يتساقط الياسمين الهندى من أشجارها القصيرة فى الخريف ، فتعبق النسمة بشذاه العطر ويتسع صدرى ليحتوى الكون بأسره ويستأثر قلبى بضوء النجوم ودفء الشمس وأغانى القمر . أسبح بخلوتى فى بحر من الطمأنينة الراسخة وتكشف لى الحياة عن سرها وتغنى لى أناشيد الحب وتسمعنى الهسيس والحفيف والخرير والنقيق والهديل ، فأدرك عن يقين أننى سعيد .

فى مواجهة الشرفة كان البحر . أبادله السر بالسر ويبادلنى الوجد بالوجد . كنا نعيش أحلى حياة نغنى معا ونرقص ونبكى ونغضب بلا عداء . ننام معا ونصحو ونتتشى ونثور ولكن بلا عداء . ثم جاء زمن «الأعداء» ليطيح بالوجد والعطر والسر والطمأنينة . اقتلع أباطرته أشجار الياسمين وحطوا مكانها بنايات من الأسمنت هائلة ، حجبت عنى البحر إلا شريطا ضيقا لا تكاد عيناى تبصرانه إلا بعناء . هواء البحر المعطر بالياسمين ضاع منى إلى الأبد . جاءوا بدلا منه بعوادم عرباتهم وضجيج ميكروفوناتهم . حاصرتنى رائحة طعام فقد طعمه وواجهات محال فقدت هويتها وصارت كل الأشياء لزجة الملمس عديمة اللون كئيبة الانطباع .

لو لم يأت هذا الزمان لبزغت الفكرة وتألقت وأورقت وأثمرت قبل أن يستحيل الشهيق إلى زفير . لكنى لم أدعها تفلت منى رغم ذلك ، فلقد كان بوسع خيالى الجامح أن يحيل شريط المياه الضيق إلى محيط شاسع أصول بمراكبى فى مياهه وأجول . حتى لو ضاع هذا الشريط فسوف أحزن ولكنى سرعان ما أعود إلى التعايش مع نفسى بدونه .

أمعنت فيه البصر باحثا عن فكرة الخلاص . لقد ابتليت بضمير واع يقظ

، لكنه لا يتحرك فى مواجهة نزواتى وإنما يتحايل بشيطانية فذة كى يتواءم معها ويتراكب فى علاقة «جنسو كيميائية» عجيبة . والنتيجة دائما هى الفشل . فالمتعة غير مكتملة والوليد غير شرعى ، وقوانين السماء لا تقبل الجدل أو المساومة. ولأننى أعرفها جيدا وأقدسها وفى ذات الوقت لا أقوى على الالتزام بها مدعيا أو معتقداً أننى بغير عالمى الخفى لا أستقر ولا أتوازن..

ولأننى أدمنت القلق باسم مستعار هو الاستقرار أحيانا والتوازن أحيانا أخرى .....

ولأننى أدرك أو بدأت أدرك أننى كذاب كبير ومنافق أكبر يخاف أن يفقد قلقه فيموت ...

فماذا يبقى أمامى كى أقتنص فرصة الخلاص حتى لا أغدو كامرأة تهوى النكاح وتخشى من الحبل ؟ ....

ها هى الفكرة تزداد وضوحا وتألقا فتؤكد لى فى غير مواربة أننى إنسان حقير . ذلك أن فى اهتزازى وترددى وحومى حول نزواتى - أدور بأطرافها ودروبها - لدليل حاسم على أن خوفى من المجتمع فقط - لا من شىء غيره - هو الذى يحول دون جرأتى على اقتحام العرين .. «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ».

ومتى ارتضيت لنفسى الاقتراب - مجرد الاقتراب - فإنه من العدل أن يفوق احترامى لياقوت احترامى لنفسى ، فأين أنا من جرأته الرائعة على مواجهة قومه عاريا بفانلته الممزقة وهو فى كامل قواه العقلية صائحا :

- كلنا حشرات .. كلكم منافقون .

هكذا أجد نفسى قد أدمنت الوقوف على الحواف . على حافة الرذيلة أقف بساق وساقى الأخرى على حافة الفضيلة . لكن من المؤكد أن هذا لن يدوم ، فمعرفتى بنفسى تجعلنى أعتقد أننى لن أقبل أن أعيش حشرة ولن

أرتضى أن أموت منافقاً . حينئذ أكون قد سحقت عدوى تحت قدمى فأحتضن عودى فى صدرى ونذوب معا فى أنغام الراست الشجية متوحدين جميعا بأنفاس الخريف . أتجاوز الحس والتعبير إلى حدود مطلقة بلا حدود، فينبعث الجمال الحقيقى للحياة من مكمنه بغير أعداء . وليعادنى الإنس والجن جميعا كيفما شاءوا ، أما أنا فالكأس والخصر والقد . فليعادنى حتى أبنائى كيفما شاءوا ، أما أنا فاللفظ واللحظ والعهد . أنا الحياة والحب والفن .. والله «يحبنى حبا شديدا» .. أبنائى الطلبة . أعود فألخص لكم محاضرتى السابقة فى أن العداء البشرى نوعان .. نوع جماعى مثل عداء الغرب لنا وقد ضربت لكم العديد من الأمثلة ابتداء من الحروب الصليبية ومرورا بمحمد على وجمال عبد الناصر وأنور السادات وصدام حسين وانتهاء بقرار الأمم المتحدة بالفصل بين العنصرية والصهيونية . ثم عداء اسرائيل لمصر والعرب ابتداء من عصر فرعون الاضطهاد وانتهاء بعصر الفراعنة الرماديين . ثم العداء بين الأقلية والأكثرية داخل الأمة الواحدة لاختلاف الديانة أو لون الجلد أو طول الإحليل ، وكذلك العداء بين شمال العالم وجنوبه بسبب مؤخرات النساء والعداء بين المذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بسبب الرغبة فى الحصول على المزيد من المتع واللذات الحسية . وأخيرا العداء بين الشعب والسلطة فى الدول المتخلفة الخاضعة للحكم الديكتاتورى .

أما النوع الفردى فليس بعيد الصلة عن سابقه ، مثل العداء بين الفقير والغنى وبين العالم والجاهل والموهوب وعديم الموهبة والمؤمن والملحد والمواطن وضابط الشرطة وهو موضوع محاضرة اليوم . وأخيرا هناك نوع آخر من العداء لن أفصح عنه الآن وسوف أخصص له محاضرة أخرى وهو فى عمومه إما إرادى بأن يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكة فيعصى أوامر الله ، وإما لا إرادى بأن يقع صريع الأمراض النفسية وأخص منها عقدة

الاستحواذ التى تصور له عدوا وهميا لا وجود له يتسلل إلى حياته فيحيلها إلى جحيم . وأعتقد أننى شخصيا سأعانى عما قريب من هذا المرض .. لا داعى للضحك والتهريج يا أولاد الكلب يا جهلة ، وعموما فهناك العديد من الآيات القرآنية تحسم مسألة العداء البشرى حسما قاطعا بين الحق والباطل ولكنكم لا تقرأون ، والويل لوطن سوف يحكمه أمثالكم .

أبنائى الطلبة . نعود إلى موضوع محاضرة اليوم عن ذلك النوع من العداء المتفشى فى العالم الثالث ، فأحيلكم إلى تقرير الطبيب الشرعى رقم ٣٥٥ الصادر فى ١٩٩١/١٠/٥ عن نيابة قسم أول الزقازيق . محافظة الشرقية ، والخاص بالأرملة نجاة عبد الله عيسى البالغة من العمر ٤٨ عاما ورقم قضيتها ١٩٩١/٢٨٣٢ . وتتلخص القضية فى أن ضابط شرطة أراد تصليح عربته مجانا لدى ميكانيكى يدعى سمير ، ولما رفض سمير هدده الضابط بتلفيق تهمة ضده بسرقة السيارات وتغيير معالمها بغرض البيع ، واستدعى جارة للميكانيكى وهى السيدة المذكورة وطلب منها الشهادة ضده لكنها رفضت شهادة الزور .

فى الليل داهموا منزلها بقرية «هربة رزنه» وسحبوها إلى مركز شرطة الزقازيق حيث قام الضباط أسامة وحسام وحمادة - وتأملوا يا أبنائى نوعية الأسماء - بتعذيبها على مدى ستة أيام على النحو التالى :

١ - وضعوها فى غرفة منفردة وجردوها من ملابسها .

٢ - ضربوها بسلك تليفون سميك على كل أجزاء جسمها .

٣ - سحلوها على الأرض بشدها من شعرها حتى تبولت على نفسها .

٤ - أحضروا لها سيدة تدعى «ملكة» لتشهد أنها شريكة سمير فى السرقة فرفضت شهادة الزور مرة ثانية وقالت أنها لا تعرفها ولم ترها من قبل .

٥ - ضربوها بكرسى من الخشب على جسدها وهى تصرخ وتولول

رافضة الاستسلام .

٦ – دفعوا فى دبرها بقطعة حديدية فى نفس الوقت الذى تضرب فيه على جسدها وتشد من شعرها وهى عارية فضلا عن سبها بأقذع الألفاظ .

٧ – حرموها من الطعام والماء .

٨ – عندما يئسوا منها ألقوا بها فى الطريق السريع حيث التقطها المارة وأودعت المستشفى .

وقيل أن وكيل النيابة بكى من فرط تأثره لبشاعة آثار التعذيب الواضحة على جسدها . والمطلوب منكم بعد الاطلاع على تفاصيل الواقعة المنشورة بجريدة الشعب المصرى الصادرة بتاريخ ١٩٩١/١٢/١٧ ، كتابة بحث تجيبون فيه عن الأسئلة الآتية :

السؤال الأول :

ما هو مفهوم العداء عند الضباط الثلاثة أسامة وحسام وحمادة تجاه الأرملة التى ترعى عشرة أولاد ؟

وما هى الدوافع المحركة له ، وكيف تأصلت تلك الدوافع فى نفوسهم ؟

السؤال الثانى :

هل تنطبق حالة عداء الانسان لنفسه على حالة السيدة نجاة ؟

السؤال الثالث :

لماذا لا تعلق لافتات على أقسام الشرطة فى ألمانيا مكتوب عليها «الشرطة فى خدمة الشعب» . ؟

السؤال الرابع :

ما هى الديموقراطية ؟

السؤال الخامس :

هل يمكن استئصال العداء من كوكب الأرض بصفة نهائية ، وإن كان هذا ممكنا فكيف يكون ذلك ؟

وبعد ذلك على كل طالب أن يكتب نموذجا تطبيقيا على حالة عداء معينة يعانى منها بصفة شخصية ، ثم يربط بينها وبين الأفكار التى سترد فى إجاباته الخمس . وسوف أشترك أنا أيضا فى كتابة النموذج الخاص بحالتى العدائية لمناقشتها معكم على الملأ . هذا ويمكنكم الاستعانة بالحقائق الآتية فى تدعيم البحث :

١ – الجهد = المقاومة × شدة التيار .

٢ – حامض + قلوى = ملح + ماء .

٣ – المادة لا تفنى ولا تخلق من عدم .. على المستوى الانسانى .

٤ – العضو الذى لا يستخدم يضمر والعضو الذى يستخدم يقوى .

...... اضحكوا على خيبتكم . من لا يريد أن يفكر فيما أقول فليغادر المحاضرة فورا .

***

- ١٦ -

- إلى متى تظل راقدا فى فراشك ؟

هل تذكر هذه الليلة ؟ . سبعة عشر عاما مضت .. جوتنبرج . لأول مرة أرى البنايات الضخمة والعمائر الكبيرة على أرض السويد ، فقد اعتادت عيناى رؤية الفيلات المستقلة المتناثرة على مسافات متباعدة وسط مساحات شاسعة من الخضرة المطعمة بالجليد الأبيض .

جاءت «هيلدا» إلى غرفتى تحثنى على الاستعداد لمغادرة الفندق للحاق بمجموعة البعثة . طلبت عربة خاصة من هاتف الغرفة ثم توقفت فى مواجهتى لا تقول شيئاً وانما تبتسم فى وجهى بمرح لم أفهم مدلوله . يا إلهى سوف أجن من هؤلاء القوم . هل تدعونى لأقبلها ؟ . هل تغضب لو فعلت ذلك ؟ هل مازالت تلتزم بارتباطها العاطفى مع زوجها السابق ؟ . هل تدل القبلة هنا على شىء يختلف عن دلالتها فى مصر . هل تتعمد إثارتى كى تتسلى بارتباكى وترددى وعجزى عن التعامل معها ؟ ..

وألف «هل » أخرى تركبنى فوق كتفى وتضغط على تلافيف مخى . عندما طال الصمت سألتها :

- لماذا لا تحبون الكلام ؟

ضحكت ثم قالت بجدية :

- ربما يكون سر التباعد الحقيقى بيننا - نحن أهل اسكندنافيا - هو كبر المساحة المخصصة لكل فرد سواء على مستوى البلاد أو حتى على مستوى الفرد الواحد داخل المنزل .

نظرت إليها متسائلا وقد أعملت عقلى فى حسبة إحصائية سريعة لأجد أن كل ثمانية عشر فردا فى السويد يتمتعون بحق الحياة المرفهة على كيلو متر مربع ، أما فى مصر فعلى كل خمسين فرد أن يتصارعوا بأى وسيلة للصراع لأجل حياة تعسة على كيلو متر مربع واحد يحبون فيها الكلام أكثر مما يحبون عيونهم . قالت فى حياد :

– منذ سنوات عديدة تعجز الدولة بكل ما تقدمه من إغراءات عن رفع كثافتنا السكانية .

بينها وبين أمها مسافة تقدر بآلاف الكيلو مترات ، وبمثلها تبعد عن ابنها ، فكل يعيش حياته فى الزمان والمكان حسب اختياره ، أما أنا وأسرتى وعملى وأصدقائى وأفكارى وآمالى وماضيى ومستقبلى وسكنى ومماتى فمسجونون جميعا فى شقة ضيقة رطبة مظلمة خالية من النوافذ لا تعرف الشمس والهواء ، عشش العنكبوت فى أركانها ونامت الخفافيش فى طمأنينة الموت .. وقالت هيلدا :

– إن حدة الشتاء تزيد من التباعد بيننا ، ولهذا يضطرنا الصمت إلى التفكير والابداع لأجل خلق ظروف أفضل للحياة .

– كنت أحسب أن الأولى بكم أن تزدادوا التصاقا وتآلفا ومحبة فى مواجهة قسوة الطبيعة .

– الذى يحدث بالفعل أننا نزداد انعزالا وتفردا وتزداد فى نفس الوقت براعتنا فى التخصصات العلمية الدقيقة القائمة على اجتهاد الفرد .

– وهل أنتم سعداء حقا بهذه العزلة الاختيارية ؟

قالت فى ابتسامة غامضة :

– أستطيع أن أجيبك لو اتفق اثنان فى العالم على معنى السعادة .

وعاد الصمت بيننا من جديد . كانت المسافة بين مقعدينا بعيدة ولكنى قبلتها بحرارة وأغرقت أنفى فى عطر شعرها الحريرى السيال ومارست

الحب معها مائة مرة على فراش الصمت ... وأفقت من ضعفى الأبدى على صوتها الناعم تسألنى .

- إلى أين ذهبت بخيالك يا مستر بهاء ؟

كنت واثقا فى غباء شديد أنها تعرف فيم كنت أفكر .

هربت الفكرة منى مرة أخرى ، تراوغنى اللعينة وقد كدت أمسك بها . آه. إنها السعادة . تذكرت الآن . الاتساع . حرية الوجود الحقيقى : العداء لا يأتى يا أبنائى الطلبة إلا من الضيق والتكدس والانحشار . دود يأكل بعضه البعض فى ضراوة تحت قطعة كبيرة من الحجر فى أرض عطنة . لا متنفس . عدوى دودة مثلى ، يحوم كل منا بالتواء حول الفكرة ولا يقترب منها . يهددنى لأننى اعتديت عليه مضطرا ، فأنا باحث مثله عن وسيلة للانفلات من ثقل الطوبة وعطانة الأرض ووحشية الديدان التى لن تتوانى عن أكلى لو توانيت لحظة .... ويصير طبيعيا أن أكون عدوه فأهدده من خلال الهاتف لأنه يريد أكلى فلماذا أرفض رنين أجراسه وأدعى البؤس والمسكنة ، ويا ترى أيّنا هو العدو ؟ ... أنا أم هو ؟؟

ها ... المسألة لم تنته بعد أيها الحصيف . فكرتك غير مكتملة ، فرغم الاتساع والرفاهية وقلة الكلام وتنوع الابداع إلا أن هيلدا تقتحم الفكرة فى خط مستقيم وتصرح لى - منذ سبعة عشر عاما - بأن لها أعداء على المستويين اللذين أوضحتهما لأبنائى الطلبة . والآن لقد تبددت الفكرة تماما .

- يسألون عنك كل يوم فى المؤسسة وفى المكتب .

- عندما أرغب فى العمل سأعود اليهم .

وتلك الفتاة السمراء الهندية الملامح ولعبة «المساكة» وصبيان الحى الذين تشتتوا اليوم فى البلاد . منهم من مات ولم تعرف ومنهم من قتل ومن استشهد ومن تزوج ومن هاجر ومن غرق ومن تصعلك فى

الحياة بغير هدف . لحظـة أذان المغرب تمكـنت من اقـتناصـها . كلهم يختفون فى حنايا البيـوت الضيقة يتربصـون بها . وحدى كنت أعرف فى أى بيت اختفت . ما اسمها هل تتذكره ؟؟؟ ... ربما كان نعمه؟ . ترى أين هى الآن؟.

انزوت فى ركن مظلم ببدروم سرايا الباشا . مكان لا يجرؤ طفل على الاقتراب منه . لماذا لا تطلب تغيير رقم تليفونك ؟ . بعشرة جنيهات تنهى قضيتك فى أقل من سـاعة . حفيـف أوراق الشجـرة الكبيـرة فى فناء السرايا وأذان المغرب ونسمة اقشعر لها بدنى وقـوة غامضة جذبتنى اليها . أهكذا بكل يسر تتخلى عن فضولك لمعرفة عدوك ؟ . سوف يختفى صوته إلى الأبد . لن تبقى تحت رحمة أدنى احتمال فى معاودة اتصـاله ولكنك أبدا لن تعرفه . يكفيك أن عرفت بوجود عدو أو بضرورة وجوده . ارتجف جسدى بنشوة مبهمة امتزج فيها الخوف بالرغبـة فأمسـكت بها مرتميا عليها . لم تصرخ كعادتها مع الآخرين فى لعبة المساكة . قال لى شعور خفى أنها كانت تنتظر تلك اللحظة حتى تستسـلم لإمسـاكى بها دون مقاومة . لم أبلغ مباحث التليفونات . احتضنتها . لن أطلب تغيير رقم الهاتف . لم تنـطق . لم أتخذ قرارا بشأن المؤسسة . ران صمت طويل . لم أتخذ قرارا بشأن المكتب . تبودلت أنفاس حارة لفحت وجهينا . العدو باق ما حييت . لم يحسب أحدنا زمن توحدنا قبل هجوم الصبية بضجيجهم يعلنون انتـهاء الدور .. كيف تنسى اسـمها وقد كنت تنطق به كل يوم عشرات المرات ؟؟؟ ..

– دعنى أستدعى لك طبيبا .

طبيب ؟ .. أى طبيب يا فراشتى الرقيقة الملونة التى حول الزمن الخبيث جناحيها الدقيقين إلى ذراعين أخطبوطيتين تعتصران حريتى ؟ .. أأذهب إلى الطبيب لأقول له أن مجهولا يهددنى بالقتل – هاتفيا – وزوجتى تنكر

ذلك تماما ؟

لو أخذت بنصيحتك فلابد أن أحدثه عن هيلدا ومنيرة . لماذا ولدت الأولى هناك والثانية هنا . ولابد أن أستطلع رأيه فى مسألة الاتساع . وقد يستطرد الحوار بيننا إلى حلال أم بطرس وحرام أمى وآيات القرآن التى حفظتها فى صباى والتى علمتها لأبنائى ولم أعمل بها ، ومزامير داود وتعاليم بوذا وأفكار كونفوشيوس .

الحقيقة يا عزيزتى تغريد أننى لم أفكر لحظة فى الذهاب إلى طبيب ، وانما كنت أكثر جرأة بأن وضعت كل ما أملك من تراث معرفى هزيل فى بالوعة الحمام وذهبت سرا إلى الشيخ عبدالجبار ميخائيل الذى صار الكثيرون يرفضون تصديق وجوده فى زمن الأعداء .

جلست أمامه . بخور . ذقن مثلثة . صمت . عينان ثاقبتان . وجه يشع بضوء غريب . غرفة صغيرة ضيقة . أثاث قديم . كتب مبعثرة . عرفته باسمى وتاريخ مولدى . صفر كبير هو حصيلة ما تعلمته من جمع وطرح وتوقع واستنتاج . نظر إلى بابتسامة حنون . هناك آلاف من الحقائق لا يمكن تفسيرها . لم أقل له شيئا . لم يسألنى هو الآخر . أبذل المستحيل حتى لا ينطق لسانى أمامه بما أشعر به من رعب ، فقد عاد المجرم إلى تهديدى بالقتل . فى كل مرة يزداد صوته عزما وتصميما ووحشية .

راح الشيخ يحرك أمامه أوراقا عليها أرقام وحروف عديدة . ينقلها كلاعب قمار محترف . ثقتى به تتساوى مع شكى فيه كشأنى الآن مع أى طبيب أو أى مخلوق أو أى شئ . شعرت بهبوط شديد فى ضربات قلبى . عرق غزير يتصبب على جبهتى وتحت أبطى . لو رأتنى هيلدا فى مجلسى هذا لوضعت يدها فى أمعاء العالم الثالث وأخرجت منه العفاريت والشياطين واللحى والجلاليب القصيرة والحلال والحرام وكل حكماء زماننا المعتوهين من ملوك وزعماء وأمراء ومعهم عينة البراز التى وضعها القروى بدلا من

منيه وجورى يا بت جورى . حينئذ لن أكتفى بتنصيبى حاكما على الأمة العربية بل سأطالب بأن أكون رئيسا لجمهورية العالم . صمت . كلمات غير مفهومة يخاطب بها مجموعة من المخلوقات الهائمة فى ظنه والتى عرفت فيما بعد أنها «الأجاويد» . نعم . آه . اسمه بهاء كامل ، نعم . برج الحوت ، ياه . أنت حزين وخائف يا أستاذ بهاء . اطمئن ... ثم يعود اليهم ناظرا إلي أعلى . أجول ببصرى فى السقف علنى أرى من يحادثهم . حاسب رجلك. رجل من؟ . نعم . إنسان مخلص . كل من عرفه صار حبيبه . ليس له أعداء الغرفة تكتظ بالجان . أردت أن أقول له بأننى ما جئت إلا لمعرفة عدوى .

حاولت أن أتكلم فمنعنى بإشارة من يده . نعم . يقرأ عنكم كثيرا ويحاول فهم عالمكم . يحب الخمر والنساء ولكنه يخاف الله . شيطانه أقوى منه . شيطانه أقوى منه . شيطانه أقوى منه . نعم ؟ .. مس أم لبس ؟ نعم . الحمد لله . إن شاء الله . فى مثل ذلك اليوم من الأسبوع القادم .

أى أسبوع قادم يا رجل يا طيب ؟ . ألا تدرى أننى أعشق الحواف وأدمن القلق ؟ . إلى هنا أتوقف فليس من شيمتى الاقتحام . لن أكون أسيرا لعالمك الغامض مادمت واقفا على حافته .. ورغم هذا العذاب فسوف يأتى يوم أستخرج فيه النور . أكاد أثق في ذلك اليوم مثلما لم أثق فى فكرة من قبل . يوم يرفع عنى القريب البعيد ما ستر بينى وبينه من حجب فأحصل على المنحة عن جدارة ولا يعنينى من مدلول أوراقى وأعدائى وأحبائى شئ .. وأنعم بالاتساع الحقيقى اللانهائى .

– لو فوجئت بأى طبيب أمامى من الإنس فسوف أطرده .

... و«ألبوم» الصور التذكارية . هل نجح فى إيقاف سريان الزمن ؟ . هذه الوجوه لم تعد كما هى الآن . وهذه الأماكن تغيرت أو تلاشت أو استبدلت بها أماكن أخرى . حتى بيتك الذى ولدت فيه هدم وتحول إلى عمارة سكنية شاهقة . كان بابه خشبيا عتيقا يتوسطه مقبض جميل على

شكل يد آدمية ، فصار زجاجي الجسد معدنى الإطار . لا يمت لدمى بأى صلة ، تعجز عيناى عن رؤيته . صبية العمارة ليسوا أصدقاء . لا يلعبون المساكة . معظمهم لا يعرفون أسماء بعضهم البعض . أباؤهم لا يجلسون معا على المقهى ولا يتزاورون . الزقاق أصبح شارعا تصطف العربات على جانبيه . سراى الباشا لم يعد لها وجود فأين الشجرة ومتى تعود إلى القلب بهجته ؟

وجوه المدرسة الابتدائية لم تتكرر فى المدرسة الثانوية ثم فى الجامعة فأين ذهب كل هؤلاء ؟ . هذا الألبوم لا معنى له ولا فائدة . لو ألقيت به فى الطريق فلن ينحنى أحد لالتقاطه ، فلأى انحناء ضرورة وأنت أجدر العارفين بذلك ، والأصل فى الكون هو الحياة وليس الموت . كل ما ظننته فيما مضى هاما وجوهريا وحيويا قد تتوقف الحياة بدونه ، نسيته اليوم تماما فلماذا يخاف قلبك من نسمة الخريف والشتاء قادم لا محالة .

- الاستسلام للاكتئاب سيزيد حالتك سوءا .

- ماذا أفعل حتى تصدقى أننى سعيد ؟

... ورجاء .. تلك العاهرة الصغيرة الفرحانة بجسدها وهى ترقص أمامى فتقفز حينا وتتلوى حينا على أنغام عودى الحزين الفاجر وإيقاع زوجها المسطول الذى ينفخ بحماس غير عادى فى جمرة البخور الحجازى كلما قاربت جذوتها على الانطفاء . ويقف ابنى سامح على مسرح الجامعة يعزف على الأورج ضمن فريقه الموسيقى المختص بالأنغام الغربية الفاقعة . قال لى إن اقامة حفل موسيقى بالجامعة أصبح أمرا معجزا هذه الأيام ، فالجماعات السلفية تعادى الموسيقا والحفلات والاختلاط - يا أبنائى الطلبة - وتهدد من يتمرد عليهم بالمدى والسيوف والجنازير . رغم ذلك حضرت الحفل مجاملة له وكانت رجاء تغمز لى بعينيها وهى تميل ناحيتى

وزوجها يدق على الطبلة وينفخ في البخور . الأورج قطعة من الحديد مبرمجة تصدر أنغاما من الخارج فلا تجرؤ على اقتحام داخلى . صفرية هى الأخرى . بعيدة حتى عمن يعزفها فكيف يكون الاقتراب وللقلب عمره المحدود ؟

فاقت ثقة رجاء بنفسها ثقة وداد ، وزادها الشباب غرورا فما أسهل عندها أن تستغفل نافخ البخور وما أصعب عندى أن أخون مجلسه . لم تصدق نفسها حينما حانت الفرصة . هجم الملتحون على خشبة المسرح وصفعتنى رجاء بجنون على وجهى . راحوا يحطمون الآلات بقطع حديدية كبيرة ، وتصاعد صراخ الطالبات وساد هرج عظيم فأين حرس الجامعة ؟

بعد صلاة العشاء فى تلك الليلة سألت الله ألا يوقفنى موقف الذل فى الدنيا ولا فى الآخرة ففرحت بالصفعة وانصرفت وقد زلزلت صفقة الباب من خلفى أرجاء المكان فجاءت عربات الاسعاف والبوليس والأمن المركزى وسقط قلبي من صدرى خوفا على ابنى فلم أتنفس إلا بعد أن رأيته سليما يبكى آلته المحطمة وعرفت للمرة العاشرة أن الله يحبنى حبا شديدا .

وجاءنى رفاعة الطهطاوى ومعه محمد عبده وجمال الدين الأفغانى والسيد محمد كريم وعمر مكرم فى عربة مكيفة كان محمد عبده أول من نزل منها متأففا . ثم أعقبتها عربة أخرى نزل منها محمد على باشا وآخرون . ولقد أدهشنى أن ركاب العربتين جلسوا أمامى فى صمت . صفان متواجهان يتبادلان نظرات عدائية صارمة يكاد عمرها يقترب من قرنين دون أن تتراجع . فجأة انتقل رفاعة الطهطاوى من مكانه إلى صف الحكام فجلس بجوار محمد على - وهو ألبانى يا أبنائى الطلبة تولى حكم مصر بقرار من مشايخ مصر

المصــريين دافعـــه العــداء - وظهر فجأة رجل من حرس الجامعة برتبة عقيد وقف فى حراسة هذا الصف ثم نام واقفا . سألتهم ماذا تنتظرون بعد هذا العمر ؟ . أجابوا جميعا .

- نحن فى انتظار الحل .

انتظرته معهم فلم يحضر فقلت لهم :

- ما أتعسكم . ألا تدركون أننى أستطيع الآن أن أحسم لكم هذا العداء الذى طال ؟

ضحكوا منى قائلين :

- كيف يكون ذلك ومصابك هو مصابنا ؟

- لهذا أؤكد لكم أننى أستطيع .

وأتعجب كيف تخوننى الذاكرة إلى هذا الحد فأنسى اسم نافخ البخور .

.... بعد مائة عام لن تبقى بذاكرتى عشرات الأسماء الأخرى من الأصدقاء والأعداء .

تتوارى أسماء نيفـين وياقـوت وحشـمت ووداد وطبليه واسماعيل ويوســف وسـهير وحازم وسـوزان وأسـعد وفـوزية وحسـن بهلـول وهيلـدا ومنيره . تتراكم عليهم الفصول فى تعاقبـها ، فما أهمية أن أتوصل إلى معرفة ذلك المجهول الذى يرفض الافصـاح عن نفسه والذى ألصقت به عنوة صفة العداء وربما كان عـداؤه لى أوفى من إخلاص أعظم الأصدقاء .

***

غادرت فراشى سعيدا بحالتى الجديدة . غدا أعود إلى المؤسسة صباحا لأتخذ قرارى الأول ، وإلى المكتب عصراً لأتخذ قرارى الثانى ، ولتتعاقب الفصول الأربعة بخيرها وشرها فلم تعد أوراقى على كف عفريت .

لقد أصبحت على يقين من حريتى حين دق جرس الهاتف أخيرا ليحسم

لى المهزلة .

– من أنت ؟

– أنا بهاء كامل .

– من ؟؟؟

– بهاء كامل .

– أنت الذى ؟ ...

أبنائى الطبة .....

رقم الايداع : ٢٠٠٢/١٣٧٩٢
F.S.B.N
977 - 07 - 0963 - 8

أحـــدث إصـــدارات روايات الهـــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٣٢	متواليات باب ستة	سعيد بكر	أغسطس ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٣٣	جبل الروح	جاوزينج جيان	سبتمبر ٢٠٠١	٨,٠٠
٦٣٤	منعطف النهر	ف . س نايبول	أكتوبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٥	ليالى غربال	مصطفى نصر	نوفمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٦	چنرال الجيش الميت	إسماعيل قدرى	ديسمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٧	أيام وردية	علاء الديب	يناير ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٣٨	صمت الرمل	محمد عبدالسلام العمرى	فبراير ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٣٩	قبض الريح	على الشوباشى	مارس ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٠	نخلة على الحافة	جميل عطية ابراهيم	أبريل ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤١	المعبر	زياد عبدالفتاح	مايو ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٢	أسرار حميمة	نوريا أمات	يونيه ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٣	أوان القطاف	محمود الوردانى	يوليو ٢٠٠٢	٥,٠٠

هـــذه الـروايـــة

تطرح الرواية جدلا فلسفيا مثيرا حول حتمية وجود عدو فى حياة كل إنسان مهما حاول تجنب ذلك، وهل يمكن استئصال فكرة العداء من كوكب الأرض بصفة نهائية، وإن كان هذا ممكنا فكيف يكون ذلك؟..

وبطل الرواية انسان غريب يسعى حثيثا الى الخطيئة، لكنه فى اللحظة الحرجة يفر من ارتكابها ليقف على حافة الرذيلة بساق وعلى حافة الفضيلة بالساق الأخرى ويتحول الى انسان صفرى يدمن الالتفاف حول الفكرة دون اقتحامها .

وفى جهاده المستميت مع نفسه بحثا عن عدوه المجهول الذى يهدد حياته ويسعى الى تدميرها، يعرض لنا - فى صدق شديد وصراحة فاضحة وجرأة على النفس غير مسبوقة - وصفا تفصيليا وتشريحا نفسانيا لحالة الانفصام الفكرى التى يتذبذب فيها كفرد بين الحلال والحرام، مثلما يتأرجح فيها مجتمعه بين تيارات متصارعة أخرى كالفرد والمجتمع، والدين والدولة.. والتراث والمعاصرة.. وعبر رحلة الكشف والمواجهة يتعرض الكاتب للعديد من القضايا المعاصرة المؤجل حسمها منذ زمن طويل .

إنها رواية كل إنسان يعيش هذا العصر بكل صراعاته.. فاقرأها لعلك تجد فيها نفسك!



سعيد سالم

– من مواليد محافظة الاسكندرية عام ١٩٤٣ .

– حصل على ماجستير الهندسة الكيميائية ١٩٦٨ .

– يكتب الرواية والقصة والمسرحية، كما توجد له إسهامات عديدة فى الدراما الإذاعية .

– من أهم أعمال الروائية : «جلامبو» ١٩٧٦، «بوابة مورو»، «عمالقة أكتوبر» ١٩٧٩ ، «آلهة من طين» ١٩٨٥ ، «عاليها أسفلها» ١٩٨٥ ، «كف مريم» .

– حصل على عدة جوائز منها جائزة إحسان عبدالقدوس للرواية سنة ١٩٩٠ عن رواية «الأزمنة»، كما حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى القصة عام ١٩٩٤ ، وجائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠٠١ عن «كف مريم» .